

العلاقات المصرية — اللبنانية

فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٤٠

الدكتور عمر عبد العزيز عمر

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهور شخصيات كان لها تأثير على مسار الأحداث في المشرق العربي . فلقد عاصر الأمير بشير الشهابي الثاني (١٧٨٨ — ١٨٤٠) ، أمير لبنان ، فترة حكم محمد علي في مصر (١٨٠٥ — ١٨٤٨) ، وتوطدت بين الاثنين علاقة متينة ظهرت نتائجها خلال الحملة المصرية على بلاد الشام . وكان لكل منهما مشاكله الداخلية وأطاعه الشخصية التي انعكست علاقاتهما بالدولة العثمانية منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر. وحاول الأمير بشير الثاني — عندما تراكت عليه المشاكل الداخلية — أن يستفيد من قوة محمد علي وأن يطلب منه الدعم لما كان له من تأثير ونفوذ كبيرين في الدولة العثمانية . ولقد أسفرت وساطة محمد علي في العشرينات من القرن التاسع عشر عن إصلاح ذات البين بين الأمير بشير الثاني والدولة العثمانية . ويهدف هذا البحث إلى كشف النقاب عن بداية العلاقة بين محمد علي — مؤسس النهضة الحديثة في مصر — والأمير بشير الشهابي الثاني وأسبابها وتطورها إلى أن تم فرض السيادة المصرية على كل بلاد الشام لمدة تسع سنوات متوالية . ويناقش هذا البحث ، كذلك التجربة المصرية في بلاد الشام ، وموقف اللبنانيين من الحكم المصري ، ودور الأمير بشير الثاني الذي تحالف مع محمد علي وكان عوناً له بشكل واضح .

بعد وفاة الأمير أحمد المعنى في عام ١٦٩٧ ، انتقل الحكم في لبنان إلى الأسرة الشهابية (١) لصلة النسب بين الأسرتين . وظل لبنان ، حتى أواخر القرن الثامن عشر ، يخضع لسيطرة ولاية عكا . فبعد هزيمة ضاهر العمر في عام ١٧٧٥ ، عين العثمانيون على ولاية صيدا المغامر البشناقي أحمد الجزار ، الذى اتخذ من عكا مقراً له ، وأصبح الشخصية المسيطرة على بلاد الشام حتى وفاته في عام ١٨٠٤ . وعزم الجزار على وضع جبل لبنان تحت سيادته ، فعزل بيروت عن جبل لبنان ، وعهد إلى اضعاف الأمير يوسف شهاب (١٧٧٠ - ١٧٨٨) بتحريض أخويه وأنسابه عليه . وتدخل أيضاً في النزاع بين الأحزاب في لبنان ، فأيد الجنبلاطيين ضد اليزيكيين (٢) وشجع دسائسهم ضد الأمير يوسف . وهكذا ساءت أحوال الإمارة اللبنانية بعد عام ١٧٧٨ ، إذثار بعض الأمراء الشهابيين ضد الأمير يوسف وطالبوه بالإمارة في السنوات العشرة التالية ، وكان يؤيدهم في ذلك أحمد الجزار والجنبلاطيون . وبحلول عام ١٧٨٨ ، سادت البلاد حرب أهلية تسنى فيها للجزار ان يهاجم الأمير يوسف ، الذى هزم وفقد كرسى الإمارة ، ولقى حتفه شتقاً في عكا . وعين الجزار نسيبه بشير الشهابي ، النصراني المولد ، خلفاً له ، وعرف ببشير الثاني . وأصبح بشير الشهابي الثاني ، بتأييد الجزار والجنبلاطيين الدروز ، أميراً على لبنان . وهكذا تضافرت القوى الداخلية والخارجية على رفعه إلى كرسى السلطة . وكان من العسير على الأمير بشير الثاني ، بعد عام ١٧٩٨ ، ألا يقحم لبنان في المسألة الشرقية . فلم تترك أحوال بلاد الشام والسلطنة العثمانية وتدخل أوروبا المباشر في لبنان ، لم تترك له حرية التصرف . كذلك أجبرت الأوضاع الاقطاعية أمير لبنان على أن يتحالف مع قوى خارجية تمكنه من التغلب على خصومه في الداخل . ولعل حاكماً آخر غير الأمير بشير كان يترك الأمور تجري كيفما اتفق ، متكللاً على الأقدار . أما بشير فأراد ، بسبب طموحه ، أن يجعل من الإمارة اللبنانية عنصراً فعالاً في الشؤون الإقليمية والدولية ، فحالف قوى وابتعد عن أخرى . وأظهر مهارة في تسيير دفة الأمور ، فاحتفظ

لنفسه بإمارة لبنان اثنتين وخمسين عاماً ، وهي مدة لم يسبق لها مثيل في تاريخ هذه الإمارة . لكن التزاماته وارتباطاته الخارجية أدت في النهاية إلى سقوطه ، وإلى انهيار الإمارة وإغراق لبنان في الفوضى والتفلاق (٣) .

وكان واضحاً أن يد الجزائر هي التي رفعت بشير الثاني إلى إمارة لبنان ، لكن الأمير الجديد بدأ يشعر بضغط عكسا حالما استتب له الأمر في دير القمر . غير أن احتلال نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ . ثم زحفه على فلسطين ، قد أراح بشير الثاني إلى حين من اهتمام الجزائر . وعندما حاصر الفرنسيون عكا في عام ١٧٩٩ . طلب الجزائر من الأمير بشير مساعدته . لكنه اعتذر . كما اعتذر بشير عن مساعدة نابليون بونابرت رغم وعوده المتكررة بتحقيق «استقلال الأمة الدرزية» (٤) . ولقد أثار اقتراب الحملة الفرنسية من لبنان التوتر بين المواردنة . أصدقاء فرنسا ، والدروز ، غير أن بشيراً حرص على تهدئة خواطر الدروز بالاعتذار عن مساعدة الفرنسيين . وهكذا أثر ألا يتعرض لثأر الجزائر إذا باءت الحملة الفرنسية بالفشل . ولكن الجزائر المنتصر أي أن يغفر له ذلك . وصمم على الاقتصاص منه . ففي السنوات الأربع التالية بلغ تدخله في شؤون لبنان ذروته . ووقع لبنان في حالة من الفوضى والاضطراب . وبلغ عدد الشهابيين الذين أقامهم الجزائر على كرسى الإمارة . لناوأة الأمير بشير ، خمسة . ولما تبين بشير الثاني أنه لا يمكنه الدفاع عن مركزه في لبنان ، فر إلى قبرص في عام ١٨٠٠ على إحدى بوارج السير سدن سميث ، قائد الأسطول البريطاني في شرق البحر المتوسط . وبعد غياب دام عدة أشهر . عاد بشير الثاني إلى لبنان ، وبقي تحت رحمة الجزائر حتى توفي هذا الأخير في عام ١٨٠٤ .

وأحدثت وفاة أحمد الجزائر فراغاً كان على بشير الثاني أن يملأه . ووجد بشير الثاني نفسه طليقاً فأخذ في سحق أعدائه في الداخل ، وفي تركيز السلطة في يده وتوحيد ممتلكاته وتثبيت الحكم فيها . وفيما بين عامي ١٨٠٤ و ١٨١٩ ،

قدر لبشير الثاني أن يصير سيد لبنان المطلق ، وأن يقف في طليعة أنصار العثمانيين في بلاد الشام . وتحالف مع سليمان باشا ، والى عكا الجديد ، وتمتع بمأزرته طوال السنوات الخمس عشرة التي تلت . وعندما وثق من قوة مركزه في لبنان ، قام بمساعدة العثمانيين في مناطق أخرى . ففي عام ١٨١٠ ، غزا الوهابيون سورية واستولوا على دمشق ونهبوها . وبدلاً من أن يصد حكام الشام قوى الوهابيين تلبية لأوامر الدولة العثمانية نجد بعض هؤلاء الحكام يأخذون بتعاليم الوهابيين (٥) مثل يوسف كنج ، والى دمشق . ونتيجة لذلك تحالف سليمان باشا ، والى صيدا ، مع بشير الشهابي ضد يوسف كنج ووضع خطة لطرده من دمشق . وأسند الباب العالي باشوية دمشق سرّاً إلى سليمان باشا ، وترك له الطريقة التي يراها مناسبة لوضع نفسه في حكم الولاية . واتفق سليمان باشا وبشير الثاني على مهاجمة يوسف كنج عندما يتوجه على رأس قواته لمقاتلة الوهابيين في مكان على طريق الحج . وقد يبدو غريباً أن يوسف كنج الذي تأثر بتعاليم الوهابيين توجه لمحاربتهم . والحقيقة أن يوسف كنج كان يرى في التعاليم الوهابية وسيلة لانقاذ المنطقة من تدهور المسلمين . ولكنه لم يكن موافقاً على الطريقة العشائرية التي أراد الوهابيون بها نشر تعاليمهم . ولكي ينفذ خطته في ضرب الحركة الوهابية ، أرسل يوسف كنج إلى محمد علي ، والى مصر ، رسالة تشتمل على خطة ثلاثية تقوم بها العراق والشام ومصر لتوجيه ضربة قاضية إلى الدرعية معقل الموحدين (٦) . وقد كتب يوسف كنج في رسالته يقول : « بما أن مهمة مقاتلة هؤلاء الخوارج والعمل على اجلائهم عن الأرض المقدسة المذكورة لمهمة جد عظيمة تتطلب أن يساهم فيها كل مخلص صادق غيور على عرضه وشرفه مسارع إلى أداء واجبه نحو دينه وملته بصدق وإخلاص فان دولتكم تطلبون مني أن أساهم فيها أنا كذلك وأساعدكم على أن تكون مساهمتي ومساعدتي بتوحيد الجهود فيما بيننا وبالاتفاق بيننا على ميعاد مناسب ومبكر نضرب فيه العدو ضربتنا في آن واحد كل واحد منا من جانبه بالعتاد والقوة اللذين يكون قد أعدهما لتأدية هذه المهمة لأننا إذا وحدنا جهودنا في تأدية

هذه المهمة وساعدنا بعضنا البعض وضربنا العدو في آن واحد نكون حينئذ قد ملكنا الوسائل الكفيلة لتدمير العدو ودحره من كل جانب وأيضاً أسباب نصرة دين مولانا وسيدنا وصفوة خلق الله في الدنيا والآخرة محمد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأسباب اسعاد دولتنا ونيل رضاء الله تعالى عنا وحياسة اعجاب جلالة السلطان بعملنا وتقديره الحسن له تقديرأ عظيماً « (٧) . وبينما كان يوسف كنج يستعد لمحاربة الوهابيين ، كان الباب العالي قد غدر به وأسند الولاية إلى سليمان باشا ، والى صيدا . وهاجم كل من بشير الثماني وسليمان باشا دمشق (٨) .

فر يوسف كنج لاجئاً إلى صديقه محمد علي . وقد تألم محمد علي من هذه الحادثة لأنه كان يثق بيوسف كنج في تقديم معونة كافية للقوات التي كان يزعم محمد علي إرسالها إلى الحجاز ، لأنه كان على عداوة مع سليمان باشا لأنه من المماليك ، وأصبح يحمي المماليك الفارين من وجه محمد علي وبالتالي أصبح سليمان باشا - في هذه الظروف - شوكة في جنب مصر وقادراً على أن يضرب قوات محمد علي في الحجاز من خلف . وأرسل محمد علي يطلب من الباب العالي عزل سليمان باشا عن ولاية الشام واسنادها إلى يوسف كنج حتى يقوم محمد علي بمهمته ضد حركة الموحدين (٩) . ولما يئس محمد علي من اقناع الباب العالي بموامرات سليمان باشا والعفو عن يوسف كنج وإعادته إلى دمشق ، كتب محمد علي في عام ١٨١٣ إلى الباب العالي موضحاً المتاعب الضخمة التي تتعرض لها الحملة التي تقاتل الموحدين في الجزيرة ، وضرورة وجود تعاون بين مصر والشام لانجاح هذه الحملة ، مقترحاً اسناد ولاية الشام إليه هو حتى يتمكن من القيام بواجبه في الحجاز (١٠) . ولكن الباب العالي رفض مطالب محمد علي وظل سليمان باشا في منصبه حتى عام ١٨١٩ . ولذلك فبمجرد أن أنهى محمد علي مهمته ضد الوهابيين واحتلال عاصمتهم الدرعية في عام ١٨١٨ ، رفض بطريقة لا تثير غضب الباب العالي ارسال قواته لإنقاذ العراق من الغزو الفارسي له في عام ١٨٢١ - ١٨٢٢ (١١) .

وفي عام ١٨١٩ توفي سليمان باشا ، صديق بشير الشهابي الثاني ، وحل عبد الله باشا محله في ولاية صيدا ، وهو نجل أحد كبار رجال الدولة في الآستانة . وكان عبد الله باشا هذا شاباً طموحاً ، نشيطاً في الحادية والعشرين من العمر . لذلك أبى ، كالجزار قبله ، أن يرى أميراً حاكماً قوياً في لبنان ، فصمم على اخضاع الأمير بشير والخط من قدره . فما أن تم تعيينه في منصبه حتى طالب الأمير بدفع ضريبة باهظة . وحين احتج الأمير ، وضع عبد الله باشا يده على جميع رعايا الأمير اللبنانيين الذين تصادف وجودهم في صيدا وبيروت ، وعددهم نحو مائة وسبعين شخصاً . واضطر بشير الثاني إلى قبول طلب الباشا ، فاستدان مالا لدفع ما فرض عليه ، وأوكل إلى عملائه جمعه من البلاد . لكن ما إن باشر هؤلاء عملهم حتى أعلن أهالي المتن وكسروان العصيان ، بتحريض حسن وسلمان شهاب ، وهما من أنسباء الأمير الحاكم . ولما عجز بشير عن جمع الضرائب والقضاء على العصيان ، تنازل عن الإمارة في عام ١٨٢٠ وغادر البلاد إلى حوران . فصدر أمر عبد الله باشا بتعيين حسن وسلمان شهاب ليخلفاه (١٢) . ولم يمض زمن طويل حتى أدرك عبد الله باشا خطأه . إذ ما إن خلت البلاد من الأمير بشير الثاني حتى عمت فيها الفوضى لأن الأميرين اللذين حلا محله عجزا تمام العجز عن إدارة دفة الحكم . ووجد عبد الله باشا أنه لا مفر من الاستعانة بالأمير بشير الثاني للسيطرة على لبنان .

وعندما تنازل الأميران حسن وسلمان عن الإمارة في عام ١٨٢١ ، اجتمع أعيان لبنان وأعادوا انتخاب الأمير بشير الثاني بموافقة عبد الله باشا . وبمجرد عودة الأمير إلى لبنان ، جرد حملة ضد العصاة في مختلف المناطق ، فسحقهم ونشر الأمن والنظام في البلاد . وتحولت العداوة القديمة بين بشير الثاني وعبد الله باشا إلى صداقة مما دفع الأمير إلى التورط مع الباشا في المشاكل الخارجية . فقد كان عبد الله باشا يطمع في ولاية دمشق ، كما طمع فيها الجزار من قبل . وكانت ولاية دمشق ، في ذلك الوقت ، تحت حكم رجل طموح هو محمد درويش باشا . وكانت بين الأمير بشير الثاني ودرويش باشا عداوة يعود سببها إلى أن درويش باشا طمع في السيطرة على البقاع

وانتزاعه من تحت سيطرة الأمير بشير الثاني ، فأرسل عساكره إليه في عام ١٨٢٠ لتثبيت دعواه . لكن رجال الأمير تصدوا لجند الوالي وردوهم على أعقابهم (١٣) . ولما وقع الخلاف بين درويش باشا وبين عبد الله باشا في السنة التالية ، سارع الأمير بشير إلى تأييد عبد الله ظناً منه أن الباب العالي سيفعل ذلك أيضاً . وبلغت به الحماسة لظهار ولائه لوالي صيدا أنه سار على رأس رجاله لمهاجمة دمشق ، نزولا على طلب حليفه ، فسحق عساكر درويش باشا في معركة المزة في ٢٦ مايو عام ١٨٢١ . ولكن بشيراً أخطأ التقدير ، فما أن اتضحنت نتيجة تلك المعركة حتى تدخل الباب العالي ، فندد بعبد الله باشا وأمر بنقله من صيدا ، وأضيفت ولاية صيدا إلى درويش باشا . وأذاع درويش باشا منشوراً على اللبنانيين أعلن فيه قرار الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا ونفيه والإنعام عليه «بمناصب صيدا وطرابلس واللاذقية ويافا وغزه والرملة واللد وتوابعهما مع ابقا مناصب الشام وايلاتهما ..» (١٤) . وقال أيضاً بأنه طلب من الأمير بشير الثاني المثول بين يديه فأبى ولذلك «رفعنا يده من التزام الجبل وجبيل» . وعندما رفض الأمير بشير الثاني مصالحة درويش باشا على شروطه ، اختار لنفسه مغادرة البلاد إلى مصر ، تاركاً إمارة لبنان لنسيب له يدعى عباس شهاب . وذهب عباس شهاب لمقابلة درويش باشا في مرج البقاع ، «وحضر الأمير عباس إلى قدام درويش باشا فشرفه في الخلع الفاخرة على حكومة الجبل وكسروان وبلاد جبيل حسب المعتاد» .

قرر بشير الثاني بعد أن تنازل عن الحكم الذهاب إلى مصر . وأرسل إلى عبد الله باشا يستأذنه في ذلك ، فأجابه «أنه يبقى مدة قليلة في البلاد ويعين عسكرياً وهو يدفع كلما يحتاج من المال» . ولكن بشيراً طلب منه أن يأذن له بالسير إلى مدينة بيروت ، فأذن له وأرسل الأوامر إلى أهالي بيروت والمتسلم بها «بأن تكون البلدة بيد الأمير بشير ووجه له الذخائر والجباخانا وخمسين ألف قرشاً . ولكن بشير الثاني واجه مقاومة شديدة من أهالي بيروت صورها حيدر أحمد الشهابي كما يلي :

«وقد كان الأمير بشير باطناً لا يرغب الخروج من بلاده وقد كان عازماً على محاربة عسكر الشام . حيث انه كان عالماً بعدم قدرتهم على الحرب كما سبق لهم . ثم في ١٠ في ذى القعدة الموافق إلى ٢٦ تموز حسب شرق سار الأمير بشير من بتدين طالب مدينة بيروت وصحبته أولاده ونحو ألف نفر وهم الذين من خدمه وبات تلك الليلة في الغرب . ثم سار إلى حرش صنوبر بيروت وبوصوله خرج لللتقاء متسلم المدينة . وهو خليل كاشف والشيخ عبد اللطيف مفتى افندى والشيخ أحمد الغر القاضي . وجميع اعيان البلد وترحبوا به وحيث اهالى بيروت لا يرضون تملك اهل الجبل على بلدهم وقد كانوا بغضون ذلك مختلفين الآراء . ومقتسمين فقسمة منهم كانت تميل إلى الشيخ عبد اللطيف المفتى . والبعض منهم يميلون إلى الشيخ أحمد الغر القاضي المذكور . وبعد ملتقاهم للأمير بشير في حرش صنوبر بيروت قدم الأمير إلى المتسلم حصاناً وإلى المفتى والقاضي بقج أواعى مقصب . ثم اجتمعوا جميعاً وعزموا على عدم دخول الأمير إلى المدينة وطردها اتباع الأمير ورصدوا أبوابها . وأشاروا على عصاوة عبد الله باشا ونادوا باسم درويش باشا .

«فلما نظر الأمير بشير ما أبدوه أهالى بيروت من العصاوة ارسل اعرض الى عبد الله باشا وبقي مقيماً خمسة أيام خارج البلد فحضره جواب من عبد الله باشا انه يتوجه إلى عكا . وفي ذلك النهار ذاته سار الأمير نواحى صيدا وبوصوله إلى نهر الدامور بلغه وصول البعض من عسكر درويش باشا إلى صيدا وتسلموها فنزل الأمير في قرية المعلقة في الدامور .

«وبذلك الغضون رجع رسول الأمير الذى كان ارسله إلى مصر جواب من محمد على باشا فى القبول فعند ذلك احضر المركب الفرنساوى الذى كان رابطاً تجاه بيروت . وفى ١٨ ذى القعدة الموافق الى ٢٣ تموز (٦ آب ١٨٢٢) نهار الثلاثاء نزل الأمير بشير فى ذلك المركب الفرنساوى من تجاه خلده وصحبته أولاده الأمير خليل والأمير أمين وميثة انسان من خدمه وباقى

اتباعه اصرفهم إلى محلاتهم . وفي ١٩ ذى القعدة الموافق إلى ٢٤ تموز حساب
شرق سافر في الليل المركب الفرنساوى .. » (١٥) .

وكتب كذلك عبد الله باشا إلى محمد على وطلب منه حمايته والتدخل
لمصلحته لدى الباب العالي (١٦) .

وليس لدينا من الأدلة ما يثبت أن محمد على وبشير قد اتصلا ببعضهما
قبل عام ١٨٢٢ ، فلا توجد بين أوراقهما المختلفة أى أثر لاتصال مباشر
أو غير مباشر قبل هذا التاريخ . كما لا يوجد فيما نشر من تقارير قناصل
الدول ما يدل على ذلك . ولعل ميل نديم الأمير وشاعره المعلم نقولا الترك
إلى محمد على هو الذى أوجد لدى الأمير بشير الثانى ميلا لباشا مصر واستعداداً
للجوء إليه والتفاهم معه بعد ذلك (١٧) . وعندما وصل الأمير بشير الثانى
وحاشيته إلى بولاق استقبله حنا بحرى ، أحد موظفى محمد على ، باسم
كتبخدا بك (١٨) ، وفي نفس اليوم اجتمع بكتبخدا بك لمدة ثلاث ساعات
وشرح له ما وقع فى بر الشام فطمأنه وطيب قلبه . وأقام بشير فى مدينة
الفسن بمصر الوسطى لمدة سبعين يوماً حيث زاره هناك ابراهيم باشا ،
ابن محمد على . ولما وصل محمد على من الاسكندرية ، كتب الكتبخدا بك
إلى الأمير بشير يخبره بذلك ويطلب منه الحضور لمقابلته . فحضر الأمير
بشير والتقى بمحمد على فى قصره بشبرا واختلى به لمدة ساعتين حيث حدثه
فى الأسباب التى دفعته إلى اللجوء إليه . وقال بشير أنه كان ، بامكانه مقاتلة
عسكر الوزيرين مصطفى باشا ودرويش باشا معاً وأن ينتصر عليهما ،
ولكنه أبى ذلك امثالاً لأوامر الدولة العثمانية . فسر محمد على به وقال له :
« هكذا تكون أصحاب المروءة أن يخدموا ولاية امورهم حتى الدم ، وطيب
خاطره ونظر اليه بعين الرفعة وأحبه محبه عظيمه وقال له اننى بكل زمانى
ما طلبت من الحق سبحانه طلبه الا واستجاب دعوتى . وقد طلبت انى أراك
فسبحانه تعالى ما احرمنى ذلك وقد رايتك يا امير بخير فأشكر افضال البارى
على ذلك .. » (١٩) .

وتكررت اللقاءات بين محمد علي والأمير بشير الثاني ، وفي إحدى
المرات اجتمع الديوان «و حضرت جميع علما مصر والقاضى والمفتى ونقيب
الأشراف والبعض من رؤساء العساكر وأمر الوزير باحضار الأمير (بشير) الى الديوان.
وفي دخوله التقاه بكل اكرام وأمر له في الجلوس وشرب القهوة وبدأ بحادثه
ويجابه في الكلام فاستعجبوا أوليك الجلوس لانهم ما كانوا عرفوا الأمير
بعد . فقال الوزير (محمد علي) الى القاضى هل عرفت هذا الرجل فطلب
العفو وعمل تمنى . فقال الوزير هذا كبير عشائر جبل لبنان وفي هذه الأيام
قدم الينا لانه كان خادماً عبد الله باشا والى صيدا وحين حدثت المضاعفة
بين عبد الله باشا ودرويش باشا والى الشام وغضبت الدولة العثمانية على
عبد الله باشا . فطلب درويش باشا هذا الأمير لخدمته فأبى ان يخدم غير ولي
نعمته وذلك لكبر امانته وحين حاصرت الوزر عكا حضر إلى هذه الديار .
وقد كان قادراً أن يحارب أوليك الوزر المحاصرين عكا لانه يحكم على جبل
لبنان وتحت يده عشائر تجمع مئة ألف مقاتل . ولكن ما ارد تخالف الدولة
العلية . فحين سمعوا أوليك الجلوس ما تكلم به الوزير ونظروا الأمير بشير
في غاية العقل والرزانة فصار عظيماً في أعينهم ثم انصرف الجميع وأمر الوزير
الأمير أن يبقى جالساً . واجتمع معه نحو ساعتين .. » (٢٠) . وظل الأمير
بشير يتردد على محمد علي طوال اقامته في القاهرة كل يوم مرة . وما زال
في القاهرة حتى عفا الباب العالي عن عبد الله باشا وأبقاه في منصبه كما كان .
ولدى وصول العفو استدعى محمد علي الأمير بشير وقال له : لقد صرت
عندى بمعة ابني ابراهيم وأناى لم أقم بهذه المراجعات الا لأجلك أنت فقط .
ثم أمره أن يكون على أهبة السفر وأن ينقل العفو إلى عكا بنفسه . وأن يتعاون
وعبد الله باشا لإرضاء الباب العالي بدفع المال المتوجب على هذا الأخير (٢١) .
وأمر محمد علي سلحداره سليمان أغا بأن يواكب الأمير إلى عكا قائلاً « اعلم
كأنك سائر معى » . وأبحر الأمير بشير وحاشيته إلى عكا في ثلاث مراكب
مصرية ، ولدى وصول الأمير بشير الثاني وسلحدار محمد علي استقبلهما
عبد الله باشا بمزيد الاعزاز والتكريم وتلياً على من في عكا أوامر الدولة

العثمانية . وحض الأمير بشير عبد الله باشا على ارسال المبالغ المطلوبة للآستانة وأصلح ما بينه وبين أعيان جبل صنف وجبل عامل ، ثم وصل إلى بيت الدين في ربيع عام ١٨٢٣ .

ويبدو أن الأمير بشير الثاني ومحمد علي قد تفاهما تفاهماً سياسياً وعسكرياً منذ عام ١٨٢٣ . فقبل مغادرة بشير الثاني مصر وعودته إلى الشام ، كان محمد علي قد وجه اليه سؤالاً يستوضح فيه عدد الجنود الذين يتمكن الأمير من جمعهم وارسالهم اليه إذا اقتضى الأمر . ولقد أجاب الأمير بشير الثاني بأنه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة آلاف رجل بقيادة ابنه الأكبر . وعندما اشترك محمد علي في حرب المورة كتب إلى عبد الله باشا يطلب منه الاتصال بالأمير بشير لتنفيذ وعده (٢٢) . فاستدعى عبد الله باشا بدوره الأمير بشير الثاني إلى عكا ليخبره بطلب محمد علي . وأصدر عبد الله باشا مرسوماً إلى «امرا ومقدمين ووجوه ومشايخ جبل الشوف وجبل كسروان» لتجهيز هذه القوة من «الرجال المشهورين المحربين بالشجاعة والقوة» . وعلى الفور أمر الأمير بشير بتجنيد عشرة آلاف لبناني لخدمة محمد علي . وفي منتصف يونيو عام ١٨٢٤ ، وجه الأمير بشير الثاني ابنه الأمير أمين إلى مصر بأربعين جواداً نخدياً وبعده ثمانية بلغ ثمن مجموعها مائة ألف قرش . ولما وصل مصر استقبل استقبالاً رسمياً فالتفته العساكر بالموسيقى ودخل القاهرة في موكب فخيم . ثم استقبله محمد علي ورحب به وسأله عن تجهيز العشرة آلاف مقاتل فأجابه أنها معدة . فقال له اكتب إلى والدك أنه لا لزوم لها «لأن الحمد لله عساكرنا المنصورة صارت فوق الكفاية» (٢٣) . وأضاف قائلاً «أنا موكد ومحقق صدق ابيك بمحبتى وخدمتى من دون شبهة» . ويعتقد البعض أن محمد علي قد تفاوض مع الأمير بشير بشأن الاستيلاء على سورية وضمها إلى ولايته ، وأن الأمير بشير ارتبط معه «بقسم انه يخدمه ويكون في طاعته إلى آخر نسمة من حياته» ، ومن بعده أولاده» (٢٤) . ويقول بولس قرأى أنه تحقق من تاريخ مخطوط للأمير عشر عليه في عام ١٩٢٦ أن مخالفة سرية قد أبرمت

بين الأمير بشير ومحمد على أثناء زيارة الأمير لمصر ، وأنه على أثرها صمم على تملك سورية ولم يكن ينتظر غير الفرصة السانحة (٢٥) .

وبعد عودة الأمير بشير الثاني إلى لبنان عمل على القضاء على من تبقى من خصومه ، وفي مقدمتهم حليفه السابق الشيخ بشير جنبلاط . إذ أن الشيخ بشير جنبلاط سعى أثناء غياب الأمير في مصر لمنع عودته ، متآمراً في ذلك مع عباس شهاب ، الأمير المؤقت . وكان بشير الثاني على علم تام بهذه الدسائس مما أقلق بال الشيخ بشير جنبلاط وسبب له خوفاً شديداً . وما أن وصل الأمير إلى قصره في بيت الدين عائداً من مصر ، حتى هرع إليه الشيخ بشير معلناً استمرار صداقته وخضوعه ، ولكن الأمير بشير الثاني لم يستقبله بترحاب ، بل رد على تحياته ومحاملاته بالتوبيخ والمغالاة في طلب المال . وأبى الشيخ بشير جنبلاط ذلك وفر إلى حوران ، وزحف الأمير بشير على المختارة ، معقل الأسرة الجنبلاطية ، وهدم قصر بشير جنبلاط هناك ، ثم صادر أملاكه في الشوف . ولما علم بشير جنبلاط بذلك ثارت ثائرتة وعاد إلى لبنان مصمماً على الثورة . والتف حوله عدد من المشايخ والأمراء ، وأعلن العصيان على الأمير بشير في ديسمبر عام ١٨٢٥ . ولكن ثورة بشير جنبلاط باءت بالفشل ، إذ عجز الثوار عن الصمود أمام رجال الأمير . وهرب بشير جنبلاط إلى دمشق مع من بقي معه من الأنصار . غير أنه بمجرد وصوله إلى عكا اعتقل واقتيد إلى السجن في عكا ، حيث أهر عبده الله باشا بإعدامه خنقاً ، نزولاً على رغبة الأمير بشير الثاني . وبالقضاء على هذا المنافس القوي ، الواسع الثراء ، أصبح الأمير بشير وحده السيد المطاع في لبنان . وهكذا سدد ضربة قوية إلى الزعامة الدرزية في لبنان ، ولم يغفر له الدروز ذلك ، وأحجموا عن التعاون الفعلي في شئون الامارة منتظرين فرصة سانحة للتأثر . وأثناء الخلاف بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط ، أبدى محمد على استعداداً لإرسال جيش لمساعدة الأمير بشير ضد أكبر قوة اقطاعية ، ولكن الأمير أمين بن بشير طلب منه التريث والانتظار (٢٦) . ويبدو أن محمد على كان يدرك ضرورة وجود حاكم

قوى في لبنان يستطيع أن يوحد سياسة المنطقة في اتجاه واحد حتى لا تجدد القوى الخارجية موضع قدم لها في البلاد الشامية التي هي بمثابة مفتاح مصر الشامي .

وفي هذه الأثناء ، كانت حرب المورة تسترعى اهتمام العالم ، وكان السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) قد استعان بتابعه محمد علي لخوض غمارها . وفي عام ١٨٢٥ ، نزل ابراهيم باشا بقواته في المورة ، وأحرز نجاحاً عسكرياً فائقاً في الميدان الأوروبي في الوقت الذي كانت قوات السلطان قد فشلت في مهمتها في تلك المناطق . ولم ينل محمد علي من السلطان العثماني ، لقاء خدماته تلك ، إلا جزيرة كريت ، لأن بلاد المورة التي وعد السلطان باسناد ولايتها إلى ابراهيم باشا قد استقلت ولم تبقى في يد السلطنة . وأبى محمود الثاني أن يعرض لمحمد علي عنها ولاية عثمانية أخرى ، وألح محمد علي على أن يوليه السلطان بلاد الشام عوضاً عن المورة . وحين رفض السلطان طلبه هذا ، قرر والى مصر اجتياح البلاد الشامية بالقوة لأنه أضاع أسطوله وعرض جيشه وابنه للخطر في غير مقابل ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتطلع فيها محمد علي إلى بلاد الشام . فلقد شجعه انتصاره المبكر على الوهابيين على مد دائرة نفوذه إلى سورية كضرورة استراتيجية . وفي ١٩ أغسطس عام ١٨١٣ كتب إلى السلطان يقول « ان هدفي هو أولاً عرض الحالة الحقيقية . وثانياً لأقول بأنني بمطالبتي بسورية لا أريد أبداً أن استفيد من ذلك أو أن أوسع سلطتي . إني لا أرمي الا إلى هدف واحد : أن أؤدي خدمة إلى سيدي » (٢٧) . وأثناء حرب المورة حاولت بعض الدول الأوروبية منعه من التدخل في بلاد اليونان التي وعده السلطان بها ، وأغرته بمناطق أخرى من الامبراطورية العثمانية « أكثر ربحاً » مثل سورية . وكانت الدبلوماسية البريطانية تريد له سورية ، وكتب ستراتفورد كاننج (Stratford Canning) إلى سولت (Salt) ، قنصل إنجلترا في الاسكندرية ، يقول « إذا استطعنا أن نحمل محمد علي على فهم مصالحه الخاصة ، إلى حد دفعه إلى تبني وجهات

نظرنا فلاشك في أن مساهمته ستساعد على نجاح مفاوضاتنا . وسيكون من الأفضل له أن يتنازل عن جزء من الجزية التي سيدفعها اليونانيون ويحتفظ لابنه بولاية سورية من أن يستمر في تبديد موارده على إخضاع شعب مقاوم لا يستطيع احتلال بلاده قبل أن يبديده عن بكرة أبيه .. » (٢٨) . والواقع أن محمد علي نفسه كان يتطلع نحو سورية ، وقد أدركت الدبلوماسية الفرنسية ذلك عندما افترضت في عام ١٨٣٠ أن باشا مصر قد يستخدم احتلال سورية كجسر للوصول يوماً ما ، هو أو ابنه ، إلى سدة الخلافة في الآستانة (٢٩) .

وأيا كان الأمر ، فإن محمد علي تحدث سرّاً في الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ مع الجنرال الفرنسي بيار (Beillard) عن أمانيه وقال : « أنا أعرف أن السلطنة تسير يوماً فيوماً إلى الردى ، وأنه ليصعب على أن أنشأها مما هي فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائل القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدى جل الوسائل التي تساعدني على الفور . انى أستطيع أن أفتح عكا ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه في أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التي أسعى في أنشائها ، وستمكنه شجاعته العظيمة من التمزق » (٣٠) . ويدل هذا على أن مصير سورية قد تحدد في المجالس الخاصة . ولقد صمم محمد علي على الاستيلاء على سورية بسبب الدوافع الاستراتيجية التي تتلخص في ضرورة إقامته منطقة حاجزة بين ممتلكاته في وادى النيل والمراكز القديمة للقوة العثمانية في الأناضول . ففي نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر أصبح احتلال سورية من الأمور الضرورية . فلقد استغل السلطان محمود الثانى موقف الانكشارية في حرب الموزة وقضى عليهم في عام ١٨٢٦ وبدأ ينظم جيشه على أسس أوروبية حديثة . وقد تلت كارثة اليونان حرب أخرى مع روسيا في عام ١٨٢٨ ، ولكن بتوقيع معاهدة أدريانوبل (Adrianople) في سبتمبر عام ١٨٢٩ استأنف السلطان مرة أخرى إصلاحاته العسكرية

والإدارية . وفي هذا الوقت أصبح تفوق محمد على العسكرى فى خطر ، وزادت سياسة الساطان محمود الثانى المركزية ، وعملت على الحد من استقلال محمد على الذاتى فى مصر .

ولما فشلت محاولات محمد على للاستيلاء على سورية بالوسائل السلمية ، حاول أن يجد مبرراً للتدخل ، ووجد ذلك فى سلوك عبد الله باشا ، وإلى صيدا ، الذى لم يعد يهتم باستمرار الصداقة مع محمد على ، فأوى الفلاحين المصريين الذين فروا من مصر تخلصاً من الخدمة العسكرية وامتنع عن إرجاعهم . فقرر محمد على توجيه قواته للانتقام من عبد الله باشا وقهره . وعندما علم عبد الله باشا بالأمر ، بادر إلى تحصين عكا ، وأرسل وفداً إلى الآستانة يعرض الشكوى ويطلب النجدة . ولكن الآستانة قابلت استغاثة عبد الله باللامبالاة وأبطأ الوفد هناك . وبينما كان مندوبو عبد الله باشا فى طريق العودة إلى عكا ، وصلت جيوش محمد على إلى المدينة بقيادة ابراهيم باشا ، ووقع خطاب الآستانة فى يد ابراهيم باشا ، الذى تبين منه عدم اهتمام الدولة العثمانية بعبد الله باشا ، ففضى فى تنفيذ خطته (٣١) . ورغم خطورة الموقف ، لم تقم الدولة العثمانية بأكثر من لفت نظر عبد الله باشا باستعمال الكياسة وتجنب كل ما عساه أن يؤدى إلى الاشتباك فى الحرب . وعندما أحس عبد الله باشا بالخطر وإعراض الدولة العثمانية عنه أخذ يبالغ فى إظهار المودة للأمير بشير الثانى خلافاً لقلّة الاكثارات التى أبدّاها من قبل . وأرسل إليه الهدايا الفاخرة والرسائل الرقيقة ، وجاء فى إحدى الرسائل المكتوبة بخط عبد الله باشا نفسه : «ان توجهى نحوكم هو الآن أكثر من الأول لأننا اخترناكم مراراً فما وجدناكم الا كقول القائل : وانت الخالص الذهبى المصفى » وهذا تأكد عندى وتبرهن» (٣٢) .

ومما يلاحظ فى هذا المجال أن كثيراً من المؤرخين يدعون أن محمد على كان يخطط فعلاً لإنشاء امبراطورية عربية . والواقع أنه ليس فى كلمات محمد على أو فى سياسته ما يشير إلى أنه كان يسعى لإقامة هذه الامبراطورية . فمحمد على الذى تكلم عشرات المرات عن أهدافه من الحرب السورية ،

لم يذكر مسألة وحدة العرب وتحريرهم ، ونستدل على ذلك من مجموعة الرسائل التي تبادلها مع ابنه ابراهيم وقادة جيشه وأعيان البلاد ، وهي التي نشرها الدكتور أسد رستم في عدة مجلدات بعنوان «المحفوظات الملكية المصرية» . ولقد أدت قلة الحجج لدى القائلين بعروبة محمد على إلى أن ينسبوا تلك العروبة إلى ابنه ابراهيم . ولكن القول بمقاصد ابراهيم جاء الينا عن طريق بعض الأجانب ، فلقد التقى به زائر فرنسي وهو البارون بوالكونت بالقرب من طرسوس بالأناضول عام ١٨٣٣ ، وذكر عنه «ان ابراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم» . وقال إن ابراهيم فاخر بأعجاب العرب في منشوراته التي وزعها على جنوده في الحملة السورية ، وكان يدعوهم إلى تحقيق الوحدة تحت لواء أبيه (٣٣) . ولكن يظهر أن عروبة ابراهيم هذه لم تكن أمراً جديداً ، فلو عدنا إلى رسائله التي بعث بها إلى أبيه وإلى مرعوسيه أثناء حربه في سورية ، نجد أنه أغفل ذكر الوحدة العربية في حديثه عن غايات حملته . وما نميل إلى تأكيده هنا أن محمد على كان يهدف إلى السيطرة على الخلافة الإسلامية والجلوس محل الخليفة العثماني في الآستانة . ومما يدعم هذا الرأي ما ذكره هنري دودويل بأن «فكرة محمد على لم تكن متجهة إلى انشاء وحدة عربية داخل دائرة الاسلام ، بل أن يصبح زعيم الاسلام الأشهر المشار اليه بالبنان وأن ينادى به الناس كإمام لهم» (٣٤) .

والواقع أن محمد على كان مسلماً مخلصاً في دينه يقوم بأداء الفرائض بكل اخلاص ، وأنه كان يعترف بتأخر «الملة المحمدية» بتعبير ذلك العصر ، وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة وبوجوب الصمود لطمع أوروبا وجشعها ودفع شرها عن «الملة» (٣٥) . ففي رسالة إلى ابنه ابراهيم عندما تأزمت العلاقات بينه وبين الباب العالي وبمناسبة تدخل الدول الأوروبية ، كتب يقول «يجب أن نقبل الحرب متوكلين على الله تعالى كما تفرضه الشهامة والشرف الانساني والحمية الاسلامية ونبدل ما يسعنا

من الجهود على الرغم من تفوق قوتهم معتصمين بقوله تعالى : وما النصر الا من عند الله وقوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ونحافظ على كرامتنا وشرفنا .. ان غرض الدول ليس اعانة الدولة العلية بل مجرد ترك الطرفين في حالة ضعف وعجز حتى يتسنى لهم الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة في الوقت الذي يوافق أهواءهم وسياساتهم ، واذا كان غرضهم ما ذكر فقبول تكليفهم خيانة للعامة وتام استغلالها ، فبدلاً من ان تقبل هذه الخيانة ونذكر باللعنة إلى يوم القيامة نموت في سبيل الدين ونشيد بذلك ديانا وآخرتنا ..» (٣٦) .

وفي اكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت القوات المصرية نحو عكا ، فاحتلت العريش ويافا وحيفا ، ثم وصلت برآ وبحراً إلى عكا وبدأت حصارها . ولقد أدى زحف الجيش المصرى على عكا إلى حدوث رد فعل مباشر في لبنان بسبب علاقات الود بين الأمير بشير الثانى ومحمد على . فما أن اقتربت جيوش ابراهيم باشا من عكا حتى وقع الخصام بين المواردنة والدروز في لبنان ، ونشب القتال بين الفريقين في دير القمر والمتن والبتماق . وحاول الدروز تنظيم ثورة ضد الأمير بشير اثنائى لاجراج ابراهيم باشا في زحفه ؛ ولم يكن للدروز أى عذر لمثل هذا الموقف إلا عداوتهم للأمير بشير . أما المواردنة ، فاعتبروا ابراهيم باشا صديقاً لهم ، كما اعتبره سائر نصارى بلاد الشام . وكان ابراهيم باشا كلما احتل بلداً ألغى القيود المفروضة على النصارى واليهود ووضعهم على قدم المساواة مع المسلمين . فعندما دخل القدس ، بادر إلى الناء «الأغفار» (٣٧) التى لم تكن غايتها حفظ الأمن ولكن ابتزاز الأموال غير المشروعة من الأهالى والحجاج . وأبطل هذه «الأغفار» والضرائب غير المشروعة محرراً طرقات القدس ومنازلها منها ، وأصدر مرسوماً بذلك في ديسمبر عام ١٨٣١ إلى ملا القدس وشيخ الحرم الشريف فيها ومفتى الاسلام ورتيب الأشراف وخدام المسجد الأقصى وكافة العلماء والخطباء والأعيان جاء فيه : « نحيطكم علماً انه ليس خافكم ان القدس الشريف محتوى على معابد واديرة ترد لاجل

زيارتها جميع الملل العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من سائر الاقطار والديار . فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الاغفار الموضوعة بالطرقات . ولأجل اجراء الوفاق بين الناس صدرت أوامرها الى جميع المسلمين الذين في ايلة الوية صيدا والوية القدس الشريف ونابلوس وجنين برفع هذه الاغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم . ومن حيث ان الاديرة والكنايس الكائنة بمدينة القدس الشريف هي مقر الرهبان والقسس وبها يتلون الانجيل الشريف ويجرون طرائق اعتقادهم وطقوسهم فينبغي حمايتهم وصيانتهم من كل التكاليفات التي ترتبت عليهم بواسطة طمع السالفين . فلذلك قد صدرت ارادتنا الآن برفع الترتيبات التي على جميع المعابد والاديرة وجميع طوائف النصارى الكائنة بالقدس الشريف افرنج وروم وأرمن وقبط . وكذلك العوايد المرتبة على الملة الموسوية قديماً وحديثاً بتلك المراتب .. « (٣٨) . ومما لاشك فيه أن ابراهيم باشا قد هدف من ذلك استمالة وتأييد المسيحيين في الدولة العثمانية وخاصة الأمير بشير الثاني ، وكذلك استمالة وتأييد الدول الأوروبية ، وخاصة فرنسا والرأى العام المسيحي واليهودى في العالم للوقوف معه ضد الدولة العثمانية .

وفي يناير عام ١٨٣٢ بدأت الدولة العثمانية تتحرك ضد ابراهيم باشا ، فعينت والى حلب حاكماً عسكرياً على «عربستان» وسواحل بر الشام لمقاومة الحملة المصرية . وفي فبراير من نفس العام وجه والى حلب تحذيراً إلى أهالى جبل لبنان ينهاهم فيه عن الانقياد إلى الدسائس ضد الدولة العثمانية ويحضهم على دوام الطاعة لها . ووجه عثمان باشا ، والى طرابلس ، تحذيراً مماثلاً للأمير بشير الثاني وأهالى الجبل يحذرهم فيه من الانضمام لمحمد على ويحثهم على التمسك بالولاء للسلطان العثماني (٣٩) . ونتيجة لهذه الانذارات والتحذيرات ، تهيئ الدروز الموقف «وصار اضطراب عظيم عند أكثر دروز الجبل وجعلوا يرسلوا بعضهم سراً ان لابد ان تقوى الدولة وتنتصر . وانقاد معظم الدروز إلى الأتراك واتخذوا موقفاً سرياً بهذا الشأن مخالفاً لميل الأمير بشير

الذى كان يود فى الباطن الغلبة لابراهيم باشا ويستعد خفية لتأييده ، وإن كان لم يجاهر بعد علناً بموقفه ملازماً خطة التروى والثأنى ريثما تنجلي الأمور بعض الشيء ويتشاور مع اهالى البلاد » (٤٠) . ومن ناحية أخرى ، وجه محمد على رسالة إلى الأمير بشير يحثه فيها على نصرة ابراهيم باشا ، وتوعده بأنه إذا أحجم عن الانضمام إلى ابراهيم باشا فانه سيجرد عليه خمس آلايات أوست لك دياره وقطع دابر الدروز (٤١) . وكان بشير آنذاك فى عكا إلى جانب ابراهيم باشا ولكن بدون عسكر ، إذ لم يكن قد حدد موقفه بعد انتظاراً لانجلاء الموقف ، كما أشرنا ، ولمزيد من التشاور مع الأهالى . وكان وقوف ابراهيم باشا بجيشه مدة ليست بالقصيرة أمام عكا هى أحد الأسباب الجوهرية التى أدت إلى انقسام شيوخ وأمرأ الجبل على أنفسهم : فقسم أعلن ولاءه للعثمانيين ، وقسم آخر من الأسرة الشهابية وجد أن الفرصة مواتية لاغتصاب الحكم من بشير الثانى ، فانضم إلى العثمانيين وجهاز قوات للعمل بها فى لبنان (٤٢) .

وأمام الخاح محمد على ، اتخذ بشير الثانى فى أوائل عام ١٨٣٢ موقفاً مناصراً لابراهيم باشا على الصعيد العسكرى . نأوعز إلى ابنه الأمير أمين ، نائبه فى بيت الدين ، بجمع مناصب البلاد واستشارتهم والاطلاع على همهم وعزمهم . فاستدعى الأمير أمين المناصب واستحث همهم ، فاجتمعوا ووحدوا الكلمة وكتبوا إلى الأمير بشير أنهم جميعاً مقيمون على طاعته (٤٣) . وعندئذ ، أصدر الأمير بشير الثانى مرسوماً دعا فيه الأهالى إلى توجيه ألف مقاتل إلى الشويفات بقيادة ولده خليل . وساعد الأمير خليل ابراهيم باشا فى حربه ضد العثمانيين بالقرب من طرابلس . والواقع أن بشير الثانى كان حليفاً أميناً طائعاً لمحمد على وابنه ابراهيم باشا (٤٤) . أما الموارنة ، فقد اندفعوا فى هذه المرحلة إلى جانب ابراهيم باشا . وكان البطريك المارونى يوسف حبش على اتفاق تام مع الأمير بشير الثانى ومناصراً له وللجيش المصرى . وفى أول يونيو عام ١٨٣٢ ، كتب البطريك حبش إلى حنا بحرى ، من كبار رجال الإدارة المصرية فى بلاد الشام ، يقول : « وفد الينا

تحرير جنابكم المرقوم في ٢٣ ايار (مايو) المفسح عن هذا الانتصار (فتح عكا) الفريد فحمدناه تعالى .. ثم وكامل مانوهموه لجهة صدور الاوامر الشريفة بطلب رجال ليتوجهوا بخدمة سعادته الشريفة (الأمير بشير) للشام واننا ننبه على جميع أولادنا ابناء رعيئتنا بانهم حالاً يسارعوا باجمعهم من كل من فيه الكفاية لهذه الخدمة الشريفة من دون تأخير ولا توقف فجميع ذلك بقى معلوماً لدينا . وحالا بادرننا من دون تأخير برقم كتابات عمومية للجميع حسب المطلوب . والذي نعلمه بان الجميع مستعدون لهذه الخدمة الشريفة ..» (٤٥) . ولم تقتصر مساعدة الأمير بشير والموارثة للحملة المصرية على مدها بالجنود في المعارك ، ولكن الموارثة كانوا أيضاً خير عون للمصريين في الإشراف على الإدارة في البلاد ، وتنظيم التوطين ، وحفظ الأمن . وعندما قرر ابراهيم باشا الزحف على الشام ، اتفق على ذلك مع الأمير بشير الثاني وأصدرا أمراً باستنفاذ «جميع رجال الجبل قاطبة من كل من يحمل سلاحاً» وبتسييرهم بقيادة الأمير خليل إلى قطنا . ووجه ابراهيم باشا إلى أمراء ومقدمي ومشايخ ورعايا الجبل كتاباً يخبرهم فيه على جمع كل الرجال حاملي السلاح للسير صحبة الأمير خليل . وأمر ابراهيم باشا والأمير بشير الثاني أيضاً بجمع جميع البغال والجمال والدواب من بلاد جبيل إلى بلاد صفد وجميع ما بينها من البلدان لنقل الذخيرة من صيدا إلى زحلة . كما أرسل الأمير بشير كتابات من عكا إلى جميع أكابر البلاد ليجمعوا الرجال المسلمين من الشوف والمثن وكسروان وبلاد جبيل .

وأثناء حصار عكا ، زود ابراهيم باشا الأمير بشير الثاني وأولاده بجنود مصريين لاحتلال المدن الأخرى على الساحل الشامي . فاحتل الأمير بشير ، بسهولة ، صور وصيدا وبيروت . وكانت القوات المصرية قد احتلت بيت الدين ودير القمر ، لحفظ الأمن في بلاد الشوف . وعندما سقطت عكا في ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ واستسلم عبد الله باشا ، زحف ابراهيم باشا ، يرافقه الأمير بشير الثاني ، على دمشق لاحتلال بقية البلاد الشامية . وهرب الوالي العثماني من دمشق ، إلا أن القوات المصرية واللبنانية لحقت

به إلى حمص ، حيث هزمته في يوليو عام ١٨٣٢ . وقبل أن يتحرك ابراهيم باشا نحو الشمال ترك في حمص الأمير بشير الثاني ليتولى ضبط الغنائم من مدافع وذخيرة . وبعد استيلائه على حلب ، قرر ابراهيم باشا استغلال الفوضى الشاملة لتعزيز انتصاراته ، فاجتاز جبال طوروس وهزم من جديد القوات العثمانية في موقعه بيلان في ٢٩ يوليو من نفس العام . وهكذا فتح أمامه طريق الأناضول والآستانة (٤٦) . وفي مايو عام ١٨٣٣ وقع صلح كوتاهية (٤٧) الذي توج انتصارات الجيش المصري ، وبذلك انتقل حكم بلاد الشام من يد الدولة العثمانية إلى يد محمد علي وابنه ابراهيم باشا . وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام ، وصار ابراهيم باشا حاكماً عاماً للبلاد السورية .

أخذ ابراهيم باشا في تنظيم سورية وتدبير أمورها الإدارية والسياسية والحربية، فغنى بإقرار الأمن والنظام في ربوعها ، وأمن الطرق ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالي وأملأهم وأرواحهم . ومن الناحية العسكرية ، عنى ابراهيم بتوطيد مركز مصر في سورية ، فأمن حدودها الشمالية وحصن مضائق جبال طوروس لصد هجوم العثمانيين إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام ، ورمم حصون عكا وأسوارها ، وشيد الثكنات والمستشفيات ، وخطط الطرق الحربية ، واستقرت الحاميات المصرية في أهم المدن السورية . وبلغ عدد الجيش المرابط في سورية نحو سبعين ألف مقاتل ، رابط معظمه في الجهات الشمالية القريبة من الحدود العثمانية (٤٨) . وقد ألغى ابراهيم باشا التقسيمات الإدارية التي سادت بلاد الشام في العصر العثماني الأول ، فعين في ديسمبر عام ١٨٣١ متسلمين على المدن الساحلية مثل صور وصيدا وبيروت وطرابلس وربطهم به مباشرة ، ثم عدل عن ذلك بعد سنة واحدة وفوض الأمير بشير الثاني في أكتوبر عام ١٨٣٢ في إدارة شئون هذه المدن ، فولى الأخير متسلمين عليها من أقاربه . وفي خريف عام ١٨٣٢ عين محمد علي شريف باشا حاكماً عاماً (٤٩) على جميع إيالات برالشام ، باستثناء جبل لبنان حيث بقيت إدارته تحت إشراف الأمير بشير الثاني . وإذا كان الحكم

المصرى قد استطاع - فى بادىء الأمر - القضاء على التقسيمات الإدارية التقليدية فى بلاد الشام وإقامة وحدة إدارية فيها ، إلا أن هذه الوحدة لم تدم طويلاً ، واضطر الحكم المصرى تحت تأثير الثورات المستمرة أن يعيد التشكيلات الإدارية السابقة ، فأعيد تشكيل إيالة صيدا من جديد بعد أن سلخت عنها عكا وعين سليمان باشا الفيرنساوى واليا عليها فاتخذ مدينة صيدا مقراً له . كما فصلت حلب عن إيالة الشام وعين اسماعيل بك والياً عليها فى عام ١٨٣٤ (٥٠) .

وعلى أية حال ، فقد أصبحت بلاد الشام فى أواخر الحكم المصرى (١٨٣٩) مقسمة إلى عدد من الوحدات الإدارية (مديريات) وهى الشام وحلب وصيدا وطرابلس ويافا وأدنة . وقد تولى إدارة كل منها مدير كان يساعده متسلم (فى كل مدينة) هو عون له فى تدبير الأمور . وهذا بدوره كان عنده مباشر يعمل بمثابة مديراً للمال . وكان المباشرى عادة من المسيحيين لأنهم كانوا أكثر من سواهم خبرة بالأعمال الحسابية (٥١) . وألف ابراهيم باشا فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلساً يسمى «ديوان المشورة» يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و ٢١ عضواً ينتخبون من بين أعيان البلد وتجارها ، وتنظر هذه المجالس فى مصالح كل بلدة ومطلوبات الميرى وإليها ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها . وتكون ديوان بيروت من اثنى عشر عضواً منهم ستة من المسلمين وستة من المسيحيين . وجاء فى وصف هذا الديوان أنه :

«فى ١٤ رمضان (١٢٤٩ هـ) أمر ابراهيم باشا بصير ديوان مشورة فى بيروت وجعل اثنى عشر رجلاً من أكابر بيروت أصحاب فطنة والمتسلم لا يبدى بشىء إلا بما يبرز به الحكم من ديوان المشورة بموجب كتاب منه الى ارباب الديوان المذكور وهم ستة اسلام : عبد الفتاح حماده ناظر المجلس وعمر بيه (بيهم) أحمد العريسى حسن البرير امين رمضان احمد جلول وستة نصارى وهم جبرائيل حمصى بشارة نصر الله الياس منسا ناصيف مطر

يوسف عيروت موسى بسطرس وترتيب المذكور (١) تعيين وقت معلوم كل يوم إلى حضور أرباب المجلس وعند حضورهم يحرق الكاتب اسماءهم بقائمة يرتبة حضورهم لا برتبة مقامهم (٢) الكاتب يحرق كل يوم الأشغال الموجودة عنده . وحين يحضروا أرباب المجلس يعرضها عليهم حتى يعملوها ولا تبقى من يوم إلى يوم (٣) إذا كانت هذه الأشغال لا تنتهي في ذلك اليوم فيصير الاجتماع ثاني يوم قبل الوقت المعين بزمان كاف لنهيا (٤) الاشغال المذكورة المتبقية من اليوم السابق لا تنقيد في أعماله بل في اليوم الذي تنتهي فيه (٥) حين يقرأ الكاتب الدعوى يطلب الجواب ممن هو خير بها من أرباب الديوان قبل الجميع وبعده يأخذ رأى الباقي بحيث لا يبقى احد بدون تكلم وإذا وجد واحد من أرباب المجلس تكلم مع آخر في حديث خارج عن الدعوى ينبه عليه الكاتب أولاً وثانياً فان ما افاد فيحرق في مضبطة المجلس ان فلان مشغول بشغل أحاديث خارجة عن المصلحة والكاتب لازم يحرق كلما يتقرر بالمجلس ولا يترك منه شيء وكلما يتقرر يكون مكتوباً ولا يتحرر الا الذي موافق الحق (٦) بعد نهاية المجلس وتمام (روية) المصالح التي نظر فيها واستقر الحكم عليها باستحسان الجميع يحرقها الكاتب بمسودة . وثاني يوم يبيضاها ويوجهها لمخاطباتها وبعد ذلك تنقيد في سجل المجلس وهذه الخلاصات بعد تحريرها يأخذها الكاتب كل يوم للمجلس لكي بعد نهايته يقرأها بأعلا (صوته) بحضور الجميع فان استحسنوا رأياً اوفق من الذي تقدم فيغيروا الخلاصة وتقدم الخلاصات لناظر المجلس فيختمها بختم مجلس المشورة وبعد القيد تصل الى صاحب الأمر لكي يشرح عليها الى اصحابها أمراً باجراء ما يتضمن من الحكم وإذا (ما) كان سعادة الحاكم دار موجوداً فيشرح من طرف متسلم آغا (٧) الكاتب يمسك دفترين الواحد الى صورة المجلس المتضمنة التقرير والآخر الى الخلاصات من بعد ختمهم ويلزم حفظ المسودات اليومية ضمن كيس أيضاً» (٥٢) .

ومنذ أن دخل ابراهيم باشا بلاد الشام ، استدعى الأمير بشير الثاني للتداول في تدبير الأمور ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى ابراهيم عدداً

لا يستهان به من ولاية الأمور في البلاد ، وأحل محلهم من وجد فيه الكفاءة .
وأوصى «بوجوب المحافظة على راحة الأهالي ، وتأمين العباد ، وزجر
المعتدين ، وتحاشي أسباب الجور والاعتساف» (٥٣) . ويمكن أن نوجز
الاصلاحات التي قام بها الحكيم المصري في لبنان على النحو التالي :

(أولاً) ألغى الحكيم المصري جباية «الخوة» التي فرضتها زعامات
عشائرية معينة عند معابر البلاد ومسالكها ، وكانت السلطات العثمانية
قد غضت النظر عن جبايتها أجيالاً طويلة ، فزالت هيبتها وقل نفوذها .
وأصبح جباة هذه «الخوة» أسياداً في مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . ومن
هؤلاء آل أبي غوش في الطريق المؤدى من يافا إلى القدس ، وآل رستم
في جسر شغور عبر العاصي بين اللاذقية وحلب ، وعشيرة الدنادشة في تل
كلخ بين طرابلس وحمص (٥٤) . وقد نهى ابراهيم باشا عن «الخوة» وهدد
بالعقاب الصارم فامتنع جباة عنها وامثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد
ومسالكها آمنة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين .

(ثانياً) فرق الحكيم المصري في سياسته الداخلية بين وطني آمن
وبين أجنبي طامع ، فشمل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر . فوافقت
الإدارة المصرية مثلاً على السماح لتابع قنصل إنجلترا في رودس باستخراج
الاسفنج من مياه الشام ، ولكنها رأت أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه
المصلحة بيد رجل وطني (٥٥) . وهكذا ألغى الحكيم المصري الأوضاع
التي كانت تعطي للتاجر الأجنبي بمقتضى معاهدات الامتيازات
(Capitulations) تفوقاً على المواطن ، وامكانيات على تصدير واستيراد وبيع
البضائع بقيمة أقل من تلك التي يبيع بها المواطن . ولقد كانت الإدارة
والأمراء يفرضون الضرائب العديدة على المواطن ، وبلغت أكثر من ١١٪
بينما بلغت على الأجنبي ٣٪ فقط . وبذلك ساوى الحكيم المصري بين الوطنيين
وبين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافئ بر الشام (٥٦) .

(ثالثاً) عمل الحكيم المصري على توطيد دعائم المساواة السياسية بين

النصارى والمسلمين : وفى أوائل عهد الحكم المصرى فى بر الشام ، كتب
إبراهيم باشا إلى متسلم اللاذقية يقول : « والتعرض الى الرعايا وعدم مؤاساتهم
هذا مخالف لرضانا لان الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب
ما له مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجرى اسلامه
والعيسوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد » (٥٧) . واحترم الحكم المصرى
زعامة الدروز والنصارى فى لبنان احترامه عامة اخوانهم المسلمين ، ولم يتأخر
عن ترقية الدروز والنصارى عند ثبوت الاستحقاق . فرقى إلى رتبة البكوية
حنا بحرى وهو نصرانى ونعمان جنبلاط وخطار العماد وعبد السلام العماد
ونصيف أبو نكد وهم دروز (٥٨) . كما أباح الحكم المصرى للمسيحيين
ما هو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية .
وعاقب محمود نائى بك : محافظ بيروت ، بعض مسلمى بيروت لأنهم
تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى (٥٩) . كما رأى محمد على
أن يجند النصارى ليبعد الدروز الأوروبية عنهم وعن إثارة الفتن بواسطتهم
وليزيل عداوة المسلمين ويوطد صداقتهم .

على أن المحاسن التى جاء بها الحكم المصرى لم تلبث أن اختلطت بمساوئ
جعلت الحكم المصرى حكماً ممقوتاً . لقد وعد إبراهيم باشا أهل الشام بأن
يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الأموال الأميرية .
وقد بر بوعده فى السنوات الأولى من حكمه ، فخفف عنهم بعض الأعباء
المالية ، وأخذ فى تنشيط الزراعة والتجارة (٦٠) . فشعروا بالاطمئنان
إلى الحكم المصرى وركنوا إليه . ولكن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت لما
أصدره محمد على إلى ابنه إبراهيم باشا فى أواخر عام ١٨٣٣ وأوائل عام
١٨٣٤ من الأوامر التى أثقلت كاهل الأهلى بأعباء فادحة وهى :

- ١ - احتكار الحرير فى البلاد السورية ، واجبار الأهالى على بيع
محصول أرضهم إلى الحكومة بالثمن الذى يقدره عمال الحكومة نفسها (٦١) .
- ٢ - أخذ ضريبة الرؤوس (الفردة) (٦٢) من الرجال كافة على
اختلاف مذاهبهم .

٣ - التجنيد الاجبارى لتكوين جيش ضخم لمجابهة المقاومة المحتملة من قبل الدولة العثمانية والدول الأوروبية .

٤ - نزع السلاح من أبلى أهالى البلاد . وقد تحقق هذا بسهولة فى سورية والسهول والسواحل عامة . أما فى جبل لبنان ، فقد اصطدمت هذه السياسة بصعوبات هائلة نفسية وعملية . وكتب أنطون كتافاكو ، قنصل النمسا فى عكا ، يقول : «أنا لا أعتقد أن ابراهيم باشا ناجح فى تجريد كل الأمة من السلاح وخاصة سكان جبل لبنان وتابلس والقدس . وليس من يجهل أنه لأهون على هؤلاء تسليم نسايم من تسليم سلاحهم » (٦٣) .

٥ - ادخاله السخرة فى البلاد ، وكانت تشمل الناس وحيوانات النقل لأشغال الحكومة . ويقول أحد المعاصرين أنه لم يقدر « احدمن اية رتبة كانت من الأهالى فى المدن فضلا عن القرى ان يحمى دابته ويحافظ عليها ولو جعل معلفها داخل داره فان الضابط المسمى بالتفكجى له سلطان ان يخلع الأبواب ويكسر الاقفال ويفوت هاجما إلى الدار ويجرها قهراً جبراً ويركبها لاي عسكري او ضابط اراده ويكون صاحبها مجبوراً بان يستأجر لها رجلا يرسله معها لاجل عليقتها وليحضرها له عند انتهاء عملها والا لادعوى له اذا ضاعت عليه . وفى أكثر أيام السنة كانت تمتنع الفلاحون عن النزول الى المدينة لانه لا يمكن أن ينزل اليها فلاح الاوي تسخره وودابته او هو وحده وودابته وحدها فيجره الضابط الى حيث أراد وإذا تعمد معه أصابه من الضرب الأليم والعذاب المفرط ما يجعله أن يخضع لارادته رغماً عن انفه » (٦٤) .

وقد تبرم الأهالى من هذه المحدثات وتذمروا منها ، لأن احتكار الحكومة ، مثلاً ، للحريز كان من شأنه إلحاق الضرر بمتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين من مكاسبهم منه . وقد نفروا كذلك من ضريبة الرعوس وخاصة المسلمين لأنهم ما كانوا ملزمين بها من قبل ، وزاد من تدميرهم تسخير الحكومة للأهالى فى الأعمال العامة . وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التى أفضت إلى الثورة ، فقد نفذ

التجنيد بطريقة قاسية تثير حفيظة الناس . وقد كره اللبنانيون التجنيد الإجبارى كرهاً شديداً ، فقد كان الدروز والموارنة جنوداً أشداء ، يهبون للقتال في سبيل أمرائهم إذا أهاب بهم إلا أنهم كرهوا الخدمة العسكرية النظامية ، خصوصاً في جيش من غير بلادهم . وكان الموارنة كتنصاري يعتبرون أنفسهم معفيين من الخدمة في جيوش دولة إسلامية ، سواء كانت هذه الدولة عثمانية أو مصرية . أما عقال الدروز ، فأبوا أن يخدم فتيانهم جنباً إلى جنب مع جنود مسلمين في جيش واحد ، خوفاً على درزياتهم من الإفساد . أضف إلى ذلك أن الخدمة العسكرية هددت بالقضاء على طبقة الفلاحين اللبنانيين ، إذ كان من شأنها إبعاد أفضل عناصرها من المزارع والحقول ، للقتال في حروب لا مصلحة لهم فيها .

وفي عام ١٨٣٤ ، قامت أولى حركات التمرد ضد الحكم المصري في بلاد الشام . فابتدأت الثورة على شواطئ نهر الأردن بالقرب من بيت المقدس ، وسار ابراهيم بجيشه من يافا إلى بيت المقدس . وهناك جمع أكابر القوم واستوضحهم مقصدهم ، فأجابوه بأنهم لا يعارضون في احتكار الحكومة للحريز ، لكنهم يعارضون أشد المعارضة في نزع السلاح وفي تجنيد الشبان في الجيش ، وتعهدوا لقاء اعفائهم من هذا دفع ضعفى الضريبة وتقديم بعض أولاد المشايخ رهينة لضمان طاعتهم واخلاصهم . غير أن ابراهيم باشا أبى أن يتهاون في تنفيذ أوامر أبيه . وأخذت الثورة تستفحل ، وخاصة عندما ذاع بين الأهالي أن الدولة العثمانية تتأهب بجيش جديد لاسترجاع بلاد الشام من محمد على ، وامتدت الثورة إلى نابلس . فجمع ابراهيم باشا جيشاً من ستة آلاف جندي وزحف على معقل العصاة في قرية العنبر ، وحاصرها لمدة ثلاثة أيام ، وكان سقوطها سبباً في تشتت العصاة . وحضر محمد على إلى فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على القتال . وكان ابراهيم باشا وقتئذ في القدس ، فذهب لاستقباله في يافا . وكان العصيان قد امتد إلى صفد ، فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود ، فعهد محمد على إلى الأمير بشير الثاني أن يخذل هذا العصيان «واعداً إياه أن يعفى

بصورة دائمة سكان لبنان من دروز ومسيحيين من الفردة والتجنيد» (٦٥) ..
وهنا برز دور الأمير بشير الثاني واللبنانيين في التغلب على الثورة الفلسطينية.
واخادها ، إذ كتب قنصل النمسا يقول :

«مر المير بشير ازاء صيدا ومعه سبعة آلاف رجل من الجبل . وقد
قابلته .. وعرضت عليه ان ارافقه إلى صفد فتعجل بمشقة السفر وأشار على
أن أنتظر علماً منه بعد وصوله الى هناك . وفي الواقع لما علمت بخضوع
سكان هذه المدينة أسرع في ارسال ابني اسكندر إلى هناك. وقد كتب
لي لدى وصوله بما ينعش الآمال بتحسين الحال . . فقد آل حضور
الأمير بشير إلى خضوع العصاة في صفد وضواحيها .. » (٦٦) ..
وأظهر ابراهيم باشا امتنانه من الأمير بشير الثاني واللبنانيين على أثر
هذه المعارك التي انتصروا فيها ، فأباح لهم أن يحتفظوا بأسلحتهم . ومثلما
تمكن ابراهيم باشا بمساعدة الأمير بشير الثاني واللبنانيين من إخماد الثورة
النمسطينية ، فإنه تمكن ، كذلك ، بمساعدة الأمير خليل ، ابن الأمير بشير ،
من قمع ثورة طرابلس واللاذقية وفرض الهيبة في سورية .

وما أن استتب الأمر لابراهيم باشا بعد إخماد الثورات ، حتى شرع
في اتخاذ التدابير لتجنيد اللبنانيين ونزع سلاحهم . وكان لسياسته هذه أسوأ
النتائج وأوخم العواقب على حكمه في هذه البلاد ، لأن اللبنانيين لم يحاربوا
عساكر الدولة العثمانية إلا سعيًا وراء الحرية المطلقة . وقد بدأ ابراهيم باشا
في تفريق كلمة اللبنانيين قبل أن يباشر مهمة نزع سلاحهم وتجنيدهم ،
فأوهم المسيحيين أنهم سيعفون من تسليم السلاح . وفي أوائل عام ١٨٣٥ ،
اتصل ابراهيم باشا بالأمير بشير الثاني ومشايخ الدروز طالباً منهم مجتدين ، فأجابهم
بأنهم لا يستطيعون إكراه أحد على التجنيد . عندئذ عمد ابراهيم باشا إلى استعمال
الشدة ، فأرسل مرسوماً في ٢٧ سبتمبر عام ١٨٣٥ إلى الأمير بشير يخبره
فيه أنه حضر إلى زحله ومنها سيحضر إلى بيت الدين ، ويأمره بأن يعلن
ضرورة جمع السلاح من الدروز وأن يحذرهم من عواقب مخالفة هذا الأمر ..

ببواضطر الأمير بشير الثاني ، أمام هذا الضغط ، أن يفرق أولاده وحفدته في المقاطعات لجمع السلاح . وفي نفس اليوم احتل ابراهيم باشا دير القمر . وبيت الدين وبدأ في نزع السلاح من الدروز تمهيداً لتجنيدهم . ويصف كتافكو ، قنصل النمسا ، هذا الهجوم فيقول : «وقد استولوا (الجنود المصريون) من ليلة ٢٧ إلى ٢٨ أيلول على دير القمر وبيت الدين دون أن يلاقوا مقاومة أو يطلقوا طلقاً واحداً . وهذا يحمل على الاعتقاد ان الأمير بشير على اتفاق تام مع ابراهيم في هذا الصدد . وهم ينزعون الآن سلاح الدروز وبعض المسلمين الموجودين في دير القمر وجوارها . بقي علينا أن نعرف هل يعنى مسيحيو الجبل من هذا التدبير وهل يتم نزع السلاح في كل مكان بهذه السهولة» (٦٧) .

وقد تم ما تساءل عنه القنصل كتافكو، وجمع السلاح من المسيحيين . فقلقد كتب في ١٢ اكتوبر عام ١٨٣٥ يقول : «اتشرف بأن افيدكم أن جبل لبنان قد وقع تحت سلطة الحكومة المصرية وقد احتله الجنود المصريون في ٢٨ أيلول الماضي من غير أن يلقوا أدنى مقاومة . وهذا يدل على أن هذا الأمر تم برضى الأمير بشير واتفاقه مع ابراهيم باشا . وهذا موجود الآن في دير القمر حيث يراقب نزع السلاح من كل اللبنانيين من دروز ومسلمين ومسيحيين حتى اذا انتهى من هذه المهمة اهتم بالتجنيد الذي لا بد ان يتم بدون صعوبة» (٦٨) . وبعد نزع السلاح فعلا بدأ التجنيد في عام ١٨٣٧ . ويلاحظ أن ابراهيم باشا اتبع خطة تكتيكية تدريجية في جمع السلاح ، إذ بدأ جمعه من المسلمين والدروز في سورية ولبنان أولاً مستعيناً بالأمير بشير الثاني والموارنة في ذلك . وعندما انتهى من جمعه من المسلمين والدروز جمعه من الموارنة . واتبع الخطة نفسها في التجنيد فإنه ابتداءً باجراء التجنيد في سورية وحوارن مستعيناً بالموارنة . وبعد أن أنجز المهمة هناك ارتد إلى لبنان . وقد رافق تنفيذ سياسة التجنيد الاجبارى قيام اثورة من قبل الدروز في حوران . في عام ١٨٣٧ ، وشاركهم فيها دروز فلسطين ووادي التيم وجبل لبنان . وكان ابراهيم باشا قد أعنى دروز حوران من التجنيد ثم تراءى أنه أن يطبق

عليهم نظام التجنيد ، و كانت حاجته أنه في حاجة إلى زيادة عدد الجيش . استعداداً لصد هجوم العثمانيين الذي جاءت الأخبار بقرب وقوعه .

أنفذ ابراهيم باشا ثلاث حملات لإخماد ثورة دروز حوران ، ولكن الثوار استدرجوا الحملة الأولى إلى الجهات الجبلية الوعرة في بلاد اللجاء ، وانقض عليها الدروز ، ودارت بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية ، فقتل قائدها وأبيدت الحملة قتلاً وأسرّاً وتشريداً . وأرسل ابراهيم باشا إلى أبيه يطلب منه ارسال وزير الحربية المصري لقيادة الحملة الثانية ، ولكن الثوار استدرجوها كما استدرجوا الحملة الأولى ، وتم هزيمتها . وتصعدت هيبة الجيش المصري بانتصارات الدروز ، واستشرت الثورة من حوران إلى وادي التيم فثار الدروز فيها بقيادة شبلي العريان وقطعوا مواصلات الجيش . وجهاز ابراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل . أطبق بها على ثوار حوران ووداي التيم . ونشبت الحرب وكانت سجالاً ، إلى أن انتهت بتسليم دروز وادي التيم ، ثم تسليم شبلي العريان ، وانحصار الثورة في اللجاء التي تم إخمادها في أغسطس عام ١٨٣٨ (٦٩) . وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر وامتصت طاقات مصر العسكرية وسببت خسائر فادحة في الرجال والعتاد . وتدهورت نسبة السيادة المصرية في صفوف الأهالي المقيهورين والمستائين من نظام التجنيد . وقد كافأ محمد علي الأمير بشير الثاني والموارنة على دورهم في قمع ثورة حوران بأن أرسل اليهم أربعة وعشرين ألف بارودة « للموارنة واولادهم واولاد اولادهم » ، وجدد لهم وعود ابنه ابراهيم باشا بتخفيف الضرائب عنهم وبإعفائهم من السخرة (٧٠) .

ولا يغيب عن الذهن ما كان للدسائس العثمانية والإنجليزية من أثر كبير في تحريك تلك الثورات ، لاسيما وأن الاحتلال المصري لبلاد الشام قد أحدث تغييراً خطيراً في الوضع الدولي . ولذلك قررت إنجلترا العمل على الحد من مطامع محمد علي ، وبدأت تمارس نشاطاً سياسياً في بلاد الشام منذ

أوائل عام ١٨٣٥ حينما وصل ريتشارد وود (Richard Wood) إلى بيروت ، وكان يعمل في السفارة البريطانية في الآستانة . وفي هذا الصدد كتب أحد المعاصرين لتلك الأحداث يقول :

«دخلت سنة ١٨٣٩ والأمور في سورية على مارويناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال شاء ربك تغييراً في البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية (الانجليزية) ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ، دخل الرجل الذي سميناه جاسوساً ، واتمه الحقيقي وود وكان ترجحاً لقنصل دولته بالآستانة ، وأظهر في بادئ الأمر ميلاً غريباً إلى تعلم اللغة العربية ، وتغلب على امياله لدرس أحوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحاً أعماها عن معرفة غرضه الرئيسي ، ولا مشاحة ان دولة الانجليز أكثر الدول استعماراً ، وكأنتها أوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة نشأتها أصبحت في مصاف الدول المرتقبة ، وكأنتها لحظت ان محمد علي باشا يطمع بعد ضم البلاد في احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها في تنظم أحوال الرعية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتقدمة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا - نابوليون مصر - بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها في الاستعمار ، فرامت مقاومتها ولذلك ارسلت رجلها الذي ذكرناه فأخذ يلقي بنبرو الشقاق في قلوب الأهالي ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية وجعل مركزه كسروان» (٧١) .

وكان هدف وود الأساسي أن يبعد الأمير بشير الثاني عن محمد علي ، لاسيما أن وقوف بشير إلى جانب محمد علي في عام ١٨٣١ ، هو الذي سهّل اخضاع بلاد الشام للسيطرة المصرية . ولهذا عمل وود على الوقعة بين الحليين وأخذ يحث الأمير بشير الثاني على الثورة . وتلقى الأمير بشير مقترحات وود بتردد ، وأجاب بلباقة : لا يسع اللبنانيون النهوض بثورة ما لم تصبح السهول الساحلية والداخلية بيد العثمانيين أو حلفائهم إذ لا ينتج الجبل من

الخطة ما يكفي أبناءه إلا ثلاثة أشهر . فإذا قاموا بثورة وظل المصريون
أسياد الساحل والسهل يتمكن هؤلاء من القضاء على اللبنانيين جوعاً بإقامة
حصار حولهم ، ويجب على الأقل أخذ بيروت وطرابلس من القوات
المصرية (٧٢) . وقد قضى وود فترة في لبنان لتحريض الدروز ضد الأمير
بشير الثاني وحليفه ابراهيم باشا ، كما بذل محاولات عديدة لابعاد الموارنة
عن فرنسا . ومما لاجدال فيه أن سياسة وود كان لها تأثير كبير في تشجيع
الدروز على مقاومة الحكم المصري وإثارة القلاقل في وجهه .

ومن ناحية أخرى ، شجعت حركة التمرد الدرزية ضد الحكم المصري
السلطان محمود الثاني على الإسراع بوضع خطة للتأثر من محمد علي واسترجاع
سورية . ففي ابريل عام ١٨٣٩ عبرت القوات العثمانية الفرات وزحف
على سورية ، ولكن ابراهيم باشا انتصر انتصاراً ساحقاً على قوات السلطان
في موقعة نريب شمال شرقي حلب في ٢٤ يونيو من نفس العام . وبوقوع
هذه الهزيمة العسكرية . اضمحلت جميع آمال العثمانيين في استرجاع سورية
واخضاع الوالي للسلطان . وبعد خمسة أيام فقط من الكارثة قضى السلطان
محمود الثاني نجه ، وحمل معه إلى مثواه الأخير أشلاء كل أحلامه المتعلقة
بتجديد الامبراطورية العثمانية وبعثها . واحتلت المسألة السورية مركز الصدارة
في قضايا الساعة . فقد أكد انتصار نريب احتلال هذا الاقليم الذي استولى
عليه محمد علي في عام ١٨٣٣ ، بينما كان هدف الهجوم العثماني تقويض
الوضع القائم المفروض في تلك الأثناء ، ورد الجيش المصري إلى ما وراء
حدود ولاية عكا الطبيعية . ولما أصبحت الآستانة والسلطنة العثمانية مهددة
بالتمرد أمام قوات ابراهيم باشا ، تأهبت روسيا لارسال جيش للدفاع
عن الامبراطورية العثمانية بموجب معاهدة أونكيان اسكلسي الموقعة بينهما
في عام ١٨٣٣ (٧٣) . ولكن في ٢٧ يوليو عام ١٨٣٩ قدم سفراء الدول
الخمس الكبرى (انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا) مذكرة مشتركة
إلى الباب العالي ، يطلبون فيها منه ألا يعقد أى اتفاق مع محمد علي دون
موافقة الدول الأوروبية . وكان اشتراك فرنسا في المذكرة من الأمور

الغريبة -، إلا أنها أرادت باشتراكها هذا أن تحول دون انفراد روسيا بحماية الدولة العثمانية . كما كان انضمام روسيا المفاجيء إلى جانب الدول بمثابة ضربة موجّهة للسياسة الفرنسية جعلتها تضطرب وتحار في تلك السياسية . ولما لم تستطع إنجلترا أن تقنع فرنسا بما اعتزمت منحه لمحمد على من ولاية مصر وولاية عكا ، لجأت روسيا إلى إنجلترا وأظهرت استعدادها للموافقة على هذا الحل . وأرادت روسيا بذلك أن تعزل فرنسا وأن تشترك الدول الأربع الأخرى في تقرير مصير هذا النزاع بعقد مؤتمر لتلك الدول الأربع في لندن . ولكن محمد على قرر خوض المعركة حتى النهاية ، مهما كانت الظروف والاحتمالات ولو اضطُر إلى محاربة الحلفاء الخمسة . عندئذ فكر في التعبئة العامة في لبنان وفي تعميم التجنيد الإجبارى على الموارد الذين كانوا معفيين منه وبلغ عددهم مائتين وخمسين ألفاً (٧٤) .

وفي مطلع عام ١٨٤٠ شاع خبر عزم الحكومة المصرية على تجنيد النصارى في لبنان . واستغل جواسيس وعملاء إنجلترا هذه الأخبار لإثارة هواجس الموارد ومخاوفهم مغتربين كل القرص والمظاهر لإشاعة القلق . ومن الحوادث التى استغلها خصوم محمد على إلى أقصى حد إشاعة اعتقاله في مصر للتلاميذ اللبنانيين النصارى في مدرسة الطب وتجنيدهم في العسكر النظامى . ولما ذاع هذا الخبر في لبنان ثبت المورد في اعتقادهم أن الحكم المصرى عازم على تجنيد شبابهم . واتفق أن وصل إلى بيروت في تلك الأثناء مركب مشحون بملايس عسكرية ، فأشيع أنها معدة لشبان النصارى اللبنانيين فاشتدت مخاوفهم من التجنيد (٧٥) . وفي أوائل مارس عام ١٨٤٠ اتفق نصارى دير القمر سرّاً مع دروز الشوف والمناصف على مقاومة التجنيد ونيز الحكم المصرى فيما لو أعلن هذا التجنيد . وعندما علم الأمير بشير الثانى بذلك حذر الناس وكتب إلى أهالى بسكتنا يقول : «بعد الشوق بلغنا ان جهال دير القمر قد ارسلوا لكم مكاتيب لاجل يغشوكم كما غشوا ذواتهم لكى يرموكم تحت اغبار الخاطر وانكم ما قبلتم ذلك ولا جاوبتوهم ولكن رافة بكم وخشية لثلا يغشوكم بكثرة المراسلات اقتضى اصدار

هذا الامر اليكم نَحْذِرْكُمْ وننصحكم من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الاثار واذا كان عندكم مراسيل من الدير حالا اطردهم او ارموا عليهم القبض وارسلوهم بطرفنا يكون معلومكم» (٧٦) . ولما علم ابراهيم باشا باتحاد النصارى والدروز ، أصدر في ٦ مايو عام ١٨٤٠ أمراً بجمع السلاح الذى كان قد وزعه على النصارى كهبة لهم ولذريتهم . وعلى اثر ذلك دارت مفاوضات بين نصارى دير القمر وسائر المقاطعات ، وقرر الجميع مقاومة نزع السلاح ، وانطلق مائة رجل من دير القمر وطردهوا قائد الحملة الذى أرسله الأمير بشير الثانى بناء على أوامر ابراهيم باشا لجمع السلاح من نصارى المناصف والشحار (٧٧) .

تحرك أهالى دير القمر نصارى ودروزاً وبعثوا برسائل وكتابات إلى النصارى والدروز والمسلمين والشيعة في كل الجبال ينددون فيها بتدابير محمد على ويحرضونهم على مناهضة الحكيم المصرى . وانحدر أهالى دير القمر إلى ساحل صيدا وقطعوا الطرقات لمنع تحرك قوات ابراهيم باشا وحاصروها في صيدا . وبادر الأمير بشير الثانى إلى معالجة الأمر وتطويق الفتنة ، فتمكن بالحملة والإقناع من إعادة أهالى دير القمر من سواحل صيدا إلى بلدتهم . ثم عمل على الفصل بين النصارى ودروز الشوف والعقوب والغرب الفوقانى والجرد مستخدماً الإغراء بالمال والوعود ، فاستمال الدروز واتخذهم أخصاء له ومدّهم بالسلاح (٧٨) . ونتيجة لذلك ، خمدت الحركة في دير القمر والمناطق المذكورة وساحل صيدا ولكنها هبت في المتن والشحار والغرب التحتانى وكسروان وقاطع بيت شباب وبكفيا ، ونهض أهالى هذه المناطق ونزلوا إلى سواحل بيروت وحاصروا القوات المصرية فيها . فأرسل الأمير بشير الثانى إليهم ابنه الأمير أمين ليفاوضهم ويقنعهم بالكف عن الثورة فأوضحوا له مطالبهم وشروطهم وسجلوها في صك خطى . وكانت أهم مطالبهم : منع دخول جيش غريب إلى لبنان ، ورفع الظلم عنهم ، وإطلاق حريتهم في نقل السلاح ، وألا يؤخذ منهم نظام (أى لا يجندوا) ، وأن لا يكرهوا على العمل في المعادن وعلى السخرة ، وألا يدفعوا إلا

ملا واحداً ، وأن يتخذ الأمير بشير له مستشارين في ديوانه من كل طائفة اثنين (٧٩) . وطلب الثوار توقيع هذا الصك من محمد علي كتعهد منه بقبول الشروط ؛ كما طلبوا كذلك أن يضمن قناصل الدول الأوروبية في بيروت وصيدا هذه الشروط والحيلولة دون اخلال محمد علي بوعوده . وأجابهم الأمير أمين بأنه يمكنهم الاحتفاظ بالسلاح . وأن نظام التجنيد الإجباري في عسكر مصر النظامي لا يسرى عليهم . أما بقية الشروط . فتعهد أن ينظر فيها الأمير بشير الثاني ومحمد علي . ولكن الأمير بشير رفض تلك المطالب مما دفع المجتمعين في البوشرية والشيح على المضى في ثورتهم . وحاول سليمان باشا الفرنساوي ، قائد القوات المصرية في بيروت . اقناع الثوار باذلا لهم الوعود ، لكنهم أجابوه بأنهم لا يصدقون وعود محمد علي وابنه «وأنهم يفضلون الموت على الظلم» (٨٠) . وعلى أية حال ، كانت النقمة عامة على الحكم المصري ، فوصفها بوريه (Bourée) . قنصل فرنسا في بيروت ، في تقريره المؤرخ ١٤ يونيو عام ١٨٤٠ بقوله : «لا يوجد في لبنان رجل ولا أمير ، ما خلا الأمير بشير ، غير مستعد لدى أول تحريض لأن يسد بوجه ابراهيم باشا وكل جيوشه المصرية مداخل الجبل» (٨١).

وفي ٧ يونيو عام ١٨٤٠ ، اجتمع اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم ونحلهم في كنيسة مار إلياس أنطلياس ، ووقعوا اتفاقية جاء فيها : «انه يوم تاريخه قد حضرنا إلى مارى الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا بوجه العموم من دروز ونصارى ومناولة واسلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القمري وقسمنا ممين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضرر احد منا أبدا بل يكون القول واحد والرأى واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدث منا وبان ادنى خلل نكون باريين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والخطوط الخمسة وتكون نساؤنا طالقة من السبعة مذاهب ومحرمة علينا من كافة الوجوه وايضا يشهد علينا القديس مار الياس ويكون خصمنا وقد اقمنا علينا شيخا جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا . ونحن جمهور النصارى الذى نخون منا يكون

مار الياس خصمه ولا يكون له موة على دين المسيح » (٨٢) . واندلعت الثورة وعمت زحلة وبعلبك وانضم إليها أهل شمالى لبنان وبعض الكسروانيين . وحاول الثوار اللجوء إلى فرنسا للحصول على تأييدها ولكن فرنسا اتخذت موقف الوسيط بين الطرفين فأرسلت عدة بعثات إلى كل من محمد على والوارنة . وبينما كانت فرنسا تحت محمد على على الحلم والتساهل والوفاق مع اللبنانيين ، فإنها كانت تحض الوارنة على الهدوء والتأني والحكمة وتحذره من مغبة الثورة على محمد على (٨٣) . أما الدول الأوروبية الأخرى ولا سيما إنجلترا ، فقد أمدت الثوار بالمال والسلاح . ولم يقتصر هذا الأمر على ممثلى إنجلترا السياسيين ، بل قام أفراد بريطانيون كاللورد إدجرتون (Edgerton) واللورد ألفتنى (Alveney) بانزال ثمانمائة بندقية وكمية ضخمة من الذخيرة والعتاد للثوار فى ميناء جونيه . كما أنفقت بعثة وود فى لبنان فى عام ١٨٤٠ مالا يقل عن تسعمائة ألف فرنك (٨٤) . وقرر محمد على ارسال عباس باشا إلى لبنان ومعه قوة تبلغ اثنى عشر ألف مقاتل ، فرصل بيروت فى ٢٧ يونيو عام ١٨٤٠ . وطوقت القوات المصرية جبل لبنان برأ وبحراً من كل الجهات وزحفت عليه . فانسحب الدروز من المعركة التى انتهت بانتصار القوات المصرية . وفى منتصف يوليو هاجمت القوات المصرية القرى الواقعة بجوار بيروت وهى المكلس والمنصورية وبيت مرى وبطنية ووادى شحرور فنهبوا وأعملوا فيها السيف والنار فتبدد شمل الثوار وانقطعت عن القتال . وقام الأمير بشير الثانى بجمع السلاح ومطاردة الزعماء والقبض عليهم وارسالهم إلى الاسكندرية (٨٥) .

ولقد حسمت أخبار الثورة الواردة من لبنان المفاوضات الدائرة بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا فى لندن ، وعجلت بتوقيع معاهدة لندن فى ١٥ يوليو عام ١٨٤٠ . وهكذا أعطت الأموال التى انفقت فى لبنان ثمارها . ولم يعد وضع محمد على بعيد المنال . وتعهدت الدول الأوروبية بمقتضى هذه المعاهدة بمساعدة السلطان فعلاً فى اخضاع محمد على ، وتضمن

الملحق المرفق بالمعاهدة المسائل التي تعهد السلطان بعرضها على محمد علي
 وهي أن يخول محمد علي حكومة مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته ،
 وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلي بقيود متينة تربطها بالدولة مثل
 الجزية وعدم تمثيل مصر في الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح
 الألقاب وضرب النقود . فإذا لم يقبل هذه الشروط في عشرة أيام تنقص
 من حقوقه حكومة عكا ، فإذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل كان للسلطان
 الحق في اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه .
 وهكذا لم تعد انتضية مسألة انتصار الباب العالي على وال متهم بل مسألة
 وصاية صارمة فرضتها أوروبا المتحالفة على الامبراطورية العثمانية كلها ،
 بما فيها مصر وسورية وفلسطين . وفي الواقع عقدت الدول الأوروبية
 ائتلافاً عزمها على القيام بعمل عسكري سريع في سورية لإضعاف قوة
 محمد علي . وقد ناقش ثيير (Thiers) ، وزير خارجية فرنسا ، هذه
 الناحية في مذكرة وجهها إلى بامستون وأبدى فيها استغرابه لادعاء إنجلترا
 بأنها تريد إحلال السلام في الشرق بينما تثير القلاقل في المنطقة عن طريق
 امداد أهالي لبنان بالمال والسلاح للتمرد على الحكومة المصرية (٨٦) .
 ولكي تتدارك فرنسا تدخلا من قبل الحلفاء في سورية ، أرسلت بتعليمات
 دقيقة إلى قنصلها في الاسكندرية لحث محمد علي على بذل كل جهد من
 أجل ضمان ملكية سورية مهما بلغ الثمن حتى يبطل مفعول معاهدة لندن .
 وجاء في تلك التعليمات أنه «إذا تمكن الوالي من إحلال السلام في لبنان ،
 وجعل الاسكندرية وعكا في مأمن من كل هجوم ، وحشد جيوشه في
 سورية ينسك بزماتها وفي سفوح جبال طوروس ليكون مستعداً لصد
 أعدائه والتهديد بالانقضاء عليهم ، حتى لا يصبح عندئذ في وضع ينال منه
 أحد ، ولا مجال إلى إضعافه أو إرغامه على أى شيء ، ولسقطت مشاريع
 البلاطات الأربعة ، ذلك أن هذه الدول لا تملك أية وسيلة ضغط مباشرة
 لإرغامه على أى تنازل . وعندئذ تتحقق أهدافه وأهدافنا . ولكن الأمر
 لن يكون كذلك إذا اتبع محمد علي عواطفه العدائية وسعى إلى أكثر من ذلك ،
 بدل أن ينتهج هذه السياسة الرزينة ..» (٨٧) .

على أية حال ، اكتملت هزيمة مصر الدبلوماسية في لندن بالرغم من تشدد فرنسا . وتتابعت الأحداث بسرعة هائلة ، وعين السلطان العثماني عزت باشا قائداً أعلى لقوات البر والبحر مكلفاً بإياه طرد محمد علي من سورية ولبنان . وسار الأسطول العثماني وعلى ظهره ستة آلاف رجل من البوسفور إلى قبرص حيث اجتمع بأسطول الحلفاء (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) . وفي أوائل أغسطس عام ١٨٤٠ ، ظهرت أمام بيروت أربع سفن من الأسطول البريطاني يقودها الكومودور شارل نابيير (Napier) الذي أعلن أنه جاء لإنقاذ الأهالي من النير المصري ، ودعاهم إلى الثورة على هذا الحكم الذي أفقرهم . وجاء في بيان نابيير ما يلي :

«أيها السوريون : ان بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا بالاتفاق مع عظمة السلطان قد اتفقت جميعاً على إنهاء حكم محمد علي في سورية . وقد أرسلت على رأس قوة بحرية متقدمة لمساعد في إزالة نير الحكم الذي بسطه باشا مصر على هذه البلاد .

انكم تعلمون أنه قد صدر عن عظمة السلطان « خط شريف » يضمن سلامة رعاياه وضمان ممتلكاتهم ، وينطبق مفعول هذا « الخط الشريف » على جميع أجزاء الامبراطورية العثمانية بما في ذلك هذه البلاد بالذات . كما أن الدول الحليفة قد رفعت توصية إلى عظمة السلطان من شأنها أن توفر لكم الخير والراحة .

يأهالي لبنان الذين تسنى لي أن أراكم من على ظهر برجتي ، أدعوكم إلى الثورة وإلى خلع نير الظلم الذي تنتون تحت ثقله . واند تنوقع بين ساعة وأخرى وصول الجنود والسلاح والذخيرة من استانبول : سنحمي شاطئكم من هجمات الجيش المصري إذا ما حاول ازعاجكم .

ياجنود السلطان ، انتم يامن أخرجتم من بيوتكم ودياركم بالمكر والخديعة وقدنفوا بكم لتحاربوا في رمال مصر الحارقة . ومن ثم نقلوكم إلى سورية ،

اننى أدعوكم باسم الدول الحليفة العظمى إلى أن تعودوا إلى ولائكم القديم ،
إلى احضان السلطان . هذا واننا سنتفاوضى عن الأحداث التى وقعت ،
وسوف نتناساها . كما أنه ستدفع لكم مرتباتكم المتأخرة التى لم تدفع .. » (٨٨)

ومن ناحية أخرى . أخذ نابيير يعمل مع وود ومور . تنصل إنجلترا
فى بيروت على إثارة اللبنانيين . واتصل الثلاثة بالأمر بشير الثانى وحضوه
على الانفصال عن محمد على مقدمين باسم الحكومة البريطانية ضمانات
تتعلق باستقلال لبنان وحرىات الموارثة والدروز (٨٩) . وكتب ريتشارد
وود إلى الأمير بشير الثانى ليضمن انضمامه إلى جانب الدول الكبرى خلال
عمليات اخراج المصريين من الشام بالقوة محذراً من الاعتماد على قوة مصر
أو تأييد فرنسا لحاضد رغبة الدول الأوروبية الكبرى . وجاء فى تلك الرسالة

«والأسس حضرة لهنا من الاستانة العالية فر كاتا (٩٠) انكليز دغرى ،
وبرفتها حضر لسعادتكم فرمان شريف خاقانى عليد (٩١) سعادة آلتشى (٩٢)
دولة الانكليز النبى منطوقه السامى تبثيت سعادتكم متوليا من قبل دولته
على المقاطعة جميعاً الذين تحت حوزة سعادتكم الآن . كما انه ممنوح به
أيضا صفو الخاطر (الملوكى) لنحز سعادتكم .

« وكامل ما هو محتويه هذا فرمان الشريف فهو مثبت اجراه حيث
إنه كاين بواسطة (الشى) دولتنا (المحترمة) . (وسعادة) اجناب كافلا
بموجب وظيفته من قبل الدولة الانكليزية المعظمة لأجل كلما محتويه هذا
الفرمان المشار اليه بما يختص بصالح سعادتكم . ولم ارتضينا نوجهه الان
خشيتنا من انه ينحاش (٩٣) من احد او يفقد ، بل قصدنا نعرض عنه
لسعادتكم لاجل ان (تبعثوا) معتمد معلوم لنسلمه اياه .

«والاوفق أن يكون مصحوب بمشرفة أيضاً لأن الان صار مقتضى
ان سعادتكم (ترموا) ميلكم فى جهة الدولة انطمية بكل حرية حيث ان هذه
الدولة العثمانية الآن مشهور خاطرها لنحو سعادتكم ، ومخاضة بالاسعاف
من الأربعة دول (التقوين) (٩٤) باروبا لتأييد مرغوباتها .

« فاذا لم يبق ادنا شبها انتى توجب الخوف من أن محمد على باشا يفوز
بمرغوبه ضد كل هذه (القوة) الملوكية فلا بد لكل ذكى الذى اخصهم
سعادتكهم ، يلاحظ قوة هذا الظرف ، وانه لا بد عن نفوذ ما قد حتموا
برأيهم به ذوى القوة الملوكية المتحدة .

«ونظن ان يوافق سعادتكهم أكثر الحصول على الحرية وأن تكون الاحكام
منزها عن كل يد بل متصلة من الباب الملوكي ومثبتة تحت مناظرة أربعة ملوك
الاقوياء باروبيا ، ولا تكون تابعة الى باشا الذى حاصل الحظر المبين الى
التأخير وعدم النفوذ لاله ولا إلى المتولين من قبله . وهذا الشرف مختص
كما اعرضنا من البداية بذات سعادتكهم حسب الميل والحب ، وليس الى
البلاد لانها صارة بحساب الميل والحب ، وليس إلى البلاد لانها صارة بحساب
تحت طاعة وأحكام الدولة (العثمانية) من حينما بقى رأى رأى الملوك (على)
ذلك...» (٩٥)

وتوالت عروض الانجليز والعثمانيين على الأمير بشير الذى للانفصال
عن ابراهيم باشا وأبيه ، وتعهدوا له بأنه إذا لبى مطالبهم يبقونه والياً كما كان
وتكون الولاية على الجبل له ولذريته من بعده . ولكن بشير لم يتأثر بهذه
العروض وأجاب «معتذراً بوجود أولاده وأحفاده بين عساكر ابراهيم باشا
ومغترأ بأخبار الفرنساوية أن مراكبهم قادمة لاسعاف العزيز» (٩٦). ووجه
الأمير بشير الثانى فى ٣ سبتمبر عام ١٨٤٠ تحذيراً وتهديداً لكل من يتصل
بالانجليز وحلفائهم أو يتعامل معهم بأى شكل من الأشكال .

ورغم موقف الأمير بشير الثانى ، فقد بذلت الجهود لإثارة جبل لبنان
لضرب معنويات المسؤولين المصريين واجبارهم على الاستسلام . وتقرر
مصير سورية فى شهر سبتمبر إثر قصف بيروت وإنزال القوات الحليفة
فيها وثورة الموارنة التى أعقبت ذلك . ولكن ماكانت المجاهدة المسلحة لتنجح
لو لم يمهّد العملاء لذلك بنجاح فى أوساط أهالى الجبل . فجرى توزيع
المال والسلاح على أهالى جبل لبنان على يد عملاء أخصائيين ومبشرين

بروتستانت وكاثوليك . فوضع الأب اليسوعي ريلو (Rylo) نفسه في خدمة قضية النسا والحلفاء لدى الموارنة . وكانت علاقاته مع الضباط الإنجليز والعملاء العثمانيين حديث الجميع ، بالرغم من أن رئيسه العام الأب روثنكان (Roothcan) نصحه في ١٢ سبتمبر بالتزام الحذر الشديد . واعتقد انه يخدم في نفس الوقت قضية رهبانيته وقضية الحلفاء فأخذ يوزع السلاح على الموارنة متوخياً من ذلك أن يحصل من الباب العالي على تصريح ببناء دير في بيروت . وعلم المصريون بنشاطاته السياسية والعسكرية فأعلنوا عن جائزة لمن يأتي به حياً أو ميتاً . ونتيجة لتأثير دعاية هذا الأب اليسوعي ، اعتقد الجبليون اللبنانيون بأنهم يتطوعون في حرب مقدسة ضد إدارة ابراهيم باشا . ولكن فرنسا لم تغفر له هذه الخيانة ، فجندت اللعازارين من باريس لصالح محمد علي . فأرسل الأب إتيان ، المسئول العام عن المرسلين اللعازارين ، إلى لبنان ليحارب نفوذ اليسوعي ريلو (٩٧) . إلا أن تدخل الدبلوماسية الفرنسية المتأخرة لم يوقف ثورة الموارنة التي اتسع نطاقها في أواخر سبتمبر عام ١٨٤٠ .

وبينما كانت حكومات أوروبا تناقش مصير محمد علي ، تسارعت الأحداث في لبنان . فقد نزلت قوات الحلفاء إلى البر وأقامت معسكراً حصيناً بين بيروت وجونية على مصب نهر الكلب . ومن هناك وزع في غضون بضعة أيام ١٢,٠٠٠ بندقية مما أدى إلى تمرد حوالى ١٤,٠٠٠ من سكان الجبل (٩٨) . وفقد الأمير بشير الثاني كل أمل بعد سقوط بيروت ، فلما رأى رجحان كفة الحلفاء واتفاق كلمة أهل البلاد على مقاومة ابراهيم باشا قال لحناء بحرى الذى كان حينئذ في بيت الدين «قوم روح لعند باشتك وقل له لم عاد فائدة البلاد صارت جميعها صوت واحد» (٩٩) . وفي ١١ أكتوبر عام ١٨٤٠ غادر الأمير بشير الثاني بيت الدين ، كرسي ولايته ، مستصحباً أولاده الثلاثة وزوجته إلى صيدا ، ولكن الكومودور نابيير لم يرض بهذا الاستسلام وطلب ارساله إلى بيروت فسيروه بحراً إليها . ولما واجه السر عسكر عزت باشا خبره أن يختار محلاً لإقامته ما عدا

فرنسا وسورية ومصر ، فاختار جزيرة مالطة ، فأذن له وسافر من صيدا إليها بصحبة أولاده وأحفاده وزوجته ومدبره بطرس كرامة ونحو سبعين رجلاً من أمنائه وخدمه واستبقت له الحكومة أملاكه في لبنان وحمل معه أمواله . وكان السلطان عبد الحميد قد أصدر في ٣ سبتمبر عام ١٨٤٠ فرماناً بتعيين الأمير بشير قاسم (بشير الثالث) خلفاً للأمير بشير الثاني في حكم الجبل بسبب تأييده ومناصرته لمحمد علي . وبعد أحد عشر شهراً انتقل الأمير بشير الثاني من مالطة إلى الآستانة حيث توفي بها في عام ١٨٥٠ .

وفي العاشر من أكتوبر من الجيش المصري هزيمة فادحة في قلعة ميدان . فترجع إلى لبنان ثم إلى دمشق حيث تأهب إبراهيم باشا لتنظيم المقاومة . لكن الحلفاء قصفوا عكا فسقطت فوراً في ٤ نوفمبر عام ١٨٤٠ . وكان للخيانة دور في هذا الانتصار الصاعق وخاصة خيانة المهندس الإيطالي ديلكازينو المسئول عن تحصينات المدينة الذي انضم إلى الأعداء وزودهم بالخطط الدفاعية . وبسقوط عكا انتهى وجود مصر في سورية وسلمت يافا ونابلس . وبعد أن تم للحلفاء احتلال الثغور السورية أرسل الأميرال ستوبفورد (Stopford) ، القائد العام لقوات الحلفاء ، بعض السفن الحربية الإنجليزية بقيادة نابيير إلى الاسكندرية لتهديد محمد علي وارعاهه على قبول مطالب الدول . ولكن لما تبين نابيير أنه لا سبيل إلى إخضاع محمد علي بالقوة ، فضل الاتصال به . ولم يجد محمد علي بداً من التسليم وخاصة بعد أن تخلت فرنسا عنه وانهارت قوته المعنوية بعد سقوط عكا . فاتفق نابيير مع الحكومة المصرية على تسليم الأسطول العثماني وإخلاء سورية ، مقابل أن تضمن الدول لمحمد علي حكومة مصر وراثية وألتمس سواحل مصر بسوء ؛ وتم توقيع هذا الاتفاق في ٢٧ نوفمبر عام ١٨٤٠ . وقد رفض السلطان العثماني الاعتراف بنص هذا الاتفاق ، ولم يقره بونسيني ، سفير إنجلترا في استانبول ، ولكن بامستون وافق عليه . وفي هذا الوقت بدأ إبراهيم باشا بناء على أوامر محمد علي في الجلاء عن سورية ، ونتيجة لتدخل الدول أرسل السلطان إلى محمد علي فرمان يونيو عام ١٨٤١ انذى تقرر فيه إعطاء

محمد على وأسرته حكومة مصر وراثية . وبذلك كانت خاتمة الأمير بشير الثاني ، أمير لبنان ، مرتبطة بخاتمة حليفه ، وبقي جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش المصرية مسرحاً للمكائد والدسائس الدولية .

• وهكذا طويت صحيفة الحكم المصرى فى الشام بجلاء القوات المصرية عنه ، وصار ماله وما عليه ملكاً للتاريخ . وقد تحدث مؤرخو سورية عن الحكم المصرى بمناسبة انقضاء عهده ، وأخذوا على السوريين واللبنانيين الاستجابة لدسائس الانجليز والعثمانيين وقيامهم فى وجه الإدارة المصرية . فكتب محمد كرد على يقول : « كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام أكثر من سيئاتها ، لأنها وضعت أصول الإدارة والحماية ورفعت أيدى أبواب الاقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك الا الأمير بشير الثانى والى لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر وظل يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والأمراء المستبدين .. » (١٠٠) . وقال ميخائيل مشاقة : « كانت الدولة التركية خيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية ، فبعثت تدس الدسائس إلى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز فى حوران ووادي التيم ، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام فى الحروب والقتال » . لقد أصلح الحكم المصرى الأمور المختلة ، وقضى على الفوضى والقتال التى كانت سائدة فى بلاد الشام ، وقد أدى ذلك إلى امتعاض « أصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات (رؤساء الجند) .. لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العامة ، وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصتهم من الظلم الذى أنوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق ، ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لأنه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة

فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شئ دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ؛ وهكذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة استلفوا مالا لأصلاح بيوتهم وتموينها ، وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .. » .

حواشى البحث

١ - أسرة اسلامية سنية تنتمى إلى قبيلة قريش ، وقدموا مع الجيوش الإسلامية واستقروا فى حوران . ولقد وقفوا بجانب صلاح الدين الأيوبي فى حروبه ضد الصليبيين ، وتمكنوا من الاستيلاء على منطقة وادى التيم من الصليبيين . وفى عهد الملك الصالح أيوب تغلبوا على الصليبيين فأقطعهم عدة أقطاعات فى سهل البقاع . وتحالفوا مع المعنيين ضد الأفرنج ، ووقفوا إلى جانبهم ضد العنمية لأنهم كانوا من القيسية . وبما تسلموا زمام الأمر فى لبنان تقربوا إلى نصارى بلادهم ، وخاصة الموارنة ، واستعانوا بهم كمكدرين وكتبة ومدبري أحكام . ولكثرة اختلاطهم بهم وقفوا على مبادئ الدين المسيحى وتعاليمه ودانوا به الواحد تلو الآخر .

٢ - بعد موقعة عين داره عام ١٧١١ ، انقسم القيسيون فيما بينهم إلى حزبين : جنبلاطية ويزبكية . ونتيجة لذلك حدث انقسام بين الدروز والمسيحيين والمسلمين ، ولكن هذا الانقسام لم يؤد إلى تحيز أى حزب إلى الشهابيين أو ضدهم على الرغم من أن هذه الأحزاب قد تتورط فى تأييد فرد من الأسرة ضد فرد آخر . وينتسب آل يزبك إلى زعيم من آل عماد وهم أسرة درزية جاءت أصلاً من منطقة الموصل . ومنشأ الانقسام أن الشيخ على جنبلاط كان قد بلغ من النفوذ حداً أزعج أمير الجبل يوسف شهاب ، فأوقع الأمير بينه وبين الشيخ عبد السلام العماد ، وهو زعيم أسرة إقطاعية أخرى كبيرة ، وتحزب الناس بينهما ، فدعى أتباع جنبلاط : جنبلاطية ودعى أتباع العماد يزبكية نسبة إلى الجلد الأعلى للشيخ العماد وهو يزبك . (انظر : أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى لسورية فى العهد

العثماني ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٧٣ .

٣ - عن هذه التطورات انظر : أحمد طربين ، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية (١٨٤٢ - ١٨٦١) ، دمشق ، ١٩٦٦ .

٤ - فيليب حتى ، لبنان في التاريخ (ترجمة أنيس فريجة ونقولا زيادة) بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٥٠٢ .

٥ - كانت تعاليم محمد بن عبد الوهاب تدور حول مسائل رئيسية هي : التأكيد بأن المعتقدات الإسلامية تقوم على ما جاء في القرآن ، ونبذ كافة المعتقدات التي أدخلت على السنة ، ورفض السيطرة الروحية التي تدعيها الخلافة العثمانية أو أية خلافة أخرى ، والامتناع عن توقيع أشراف مكة أو الأسياد (سلالة النبي) أو أولياء الله أو الدراويش ، وإعادة النظام في مسألة العبادة والصوم والحج ، وتحريم قاطع للخمر والدخان والاهو والسحر وليس الحرير أو تزيين الملابس بالذهب ، أو إقامة القباب فوق الأضرحة .

٦ - بدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته بجدال أبيه وقومه ، وكان موضع الجدل «الوحدانية» رسالة الاسلام وفكرته الأساسية . ولهذا السبب أطلق ابن عبد الوهاب على نفسه وعلى أتباعه اسم «الموحدين»^١ . أما اسم «الوهابية» فقد أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوروبيون ثم جرى على الألسن .

٧ - وثائق عابدين : محفظة بجرأ برأ وثيقة (٨) نقلا عن : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الدولة السعودية الأولى ، معهد البحوث والدراسات بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٣ .

٨ - حيدر الشهابي ، لبنان في عهد الشهابيين ، نشر أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٥٥٦ - ٥٥٧ .

٩ - انظر نص القائمة المحررة لرجاء توجيه إيالة الشام لعهددة يوسف كنج في : عبد العزيز نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ - ١٩٢٠) ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٤ .

١٠ - انظر نص القائمة المحررة إلى الباب العالى في : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٩ - ٣٧٣ .

١١ - انظر : عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٧ - ١٩١ .

١٢ - يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج ١/٤٥٥ - ٤٥٨ .

١٣ - المرجع السابق ، ج ١/٤٦٠ .

١٤ - حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ، القسم الثالث : لبنان في عهد الأمير بشير الثاني ، منشورات الجامعة اللبنانية رقم ١٧ ، نشر وتحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٧٢٠ .

١٥ - المصدر السابق ، ص ٧٢٤ - ٧٢٥ .

١٦ - حيدر أحمد الشهابي ، تاريخ أحمد باشا الجزائر ، نشره أنطونيوس شبلي وأغناطيوس خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٩٩ - ٣١٦ .

١٧ - عن صلة المعلم نقولا الترك الواشجة : مصر انظر : عمر عبد العزيز عمر ، عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك - دراسة مقارنة ، منشورات جامعة بيروت العربية (تحت الطبع) .

١٨ - نائب الوالى وكان يحكم مصر أثناء غيابه .

- ١٩ - حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين :
ج ٧٣٤/٣ .
- ٢٠ - المصدر السابق ، ص ٧٣٥ - ٧٣٦ .
- ٢١ - المصدر السابق ، ص ٧٣٧ - ٧٣٩ .
- ٢٢ - محمد علي إلى عبد الله باشا ، ٩ رجب ١٢٣٩ هـ في أسد رستم :
المحفوظات الملكية المصرية ، بيروت ، ١٩٤٠ ، ج ١/٥٩ - ٦٠ .
- ٢٣ - حيدر الشهابي . المصدر السابق ، ص ٧٥٤ - ٧٥٦ .
- ٢٤ - رستم باز . مذكرات رستم باز ، تحقيق فؤاد أفرام البستاني ،
بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣ .
- ٢٥ - بولس قرألي ، المحلة السورية ، مايو ١٩٢٧ . ص ٢٦٨ .
- ٢٦ - حيدر الشهابي : المصدر السابق ، ص ٧٦٤ - ٧٦٥ .
- ٢٧ - M. Sabry, *L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et La Question d'Orient*, Paris, 1930, pp. 44 — 46.
- ٢٨ - Sabry, *op. cit.*, pp. 112—113.
- ٢٩ - Sabry, *op. cit.*, p. 180.
- ٣٠ - *Correspondance des Genreaux Beillard et Boyer*, p. 50.
- نقلا عن كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا : الجمعية الملكية
للدراستات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٩٣ .
- ٣١ - حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ،
ص ٨١٨ - ٨١٩ .
- ٣٢ - المصدر السابق ، ص ٨١٩ .
- ٣٣ - G. Douin, *La Mission du Baron de Boislecomte*, Cairo, 1927, pp. 249— 50.
- ٣٤ - H. Dodwell, *The Founder of Modern Egypt*, Cambridge, 1967, p. 127.

- ٣٥ - أسد رستم ، بشير بين السلطان والعزیز ١٨٠٤ - ١٨٤١ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٠ .
- ٣٦ - أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، وثيقة رقم ٦١٦٦ ، ج ٤/٢٨٥ - ٢٨٦ .
- ٣٧ - مراكز الدرك .
- ٣٨ - حيدر أحمد الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٨٢٥ - ٨٢٦ .
- ٣٩ - المصدر السابق ، ص ٨٢٨ - ٨٣١ .
- ٤٠ - المصدر السابق ، ص ٨٣١ .
- ٤١ - أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، ج ١ / ١٣٥ .
- ٤٢ - انظر : حيدر أحمد الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٨٣٢ .
- ٤٣ - المصدر السابق ، ص ٨٤٦ .
- ٤٤ - عن ولاء الأمير بشير لمحمد علي وإبراهيم انظر : أسد رستم ، المصدر السابق ، ج ١ / ٢١٦ - ٢١٨ .
- ٤٥ - نشر هذه الكتابات السرية في خزانة بكركي بولس قرألى في : الحلة السورية ، السنة ٣ (١٩٢٨) ، ج ٩ (ديسمبر) ، ص ٥٩٧ .
- ٤٦ - Sabry, *op. cit.*, p. 201.
- ٤٧ - راجع : جوزف حجار ، أوروبا ومصير الشرق العربي ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٨ - ٧٥ .
- ٤٨ - انظر : سليمان أبو عز الدين ، إبراهيم باشا في سورية ، بيروت ، ١٩٢٩ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- ٤٩ - أطلق عليه لقب «حكمदार عربستان» لأنه أثناء السنوات الأولى كان يتولى إدارة الولايات السورية جميعها (انظر : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٢) .

٥٠. F. Perrier, *La Syrie sous le Gouvernement de Mehmet Ali*, —

Paris, 1840, p. 53.

Perrier, *op. cit.*, p. 57.

—٥١

٥٢ — كتاب «حروب إبراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول»،
ج ١/٣٧ — ٣٨ نقلاً عن سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ —
١٣٧

٥٣ — أسد رستم . الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على
باشا ، ج ١/٧٦ .

٥٤ — المرجع السابق ، ج ١/٨٧ — ٨٨ .

٥٥ — أسد رستم . بشير بين السلطان والعزير ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

٥٦ — المرجع السابق : ص ١٠١ .

٥٧ — أسد رستم . المخطوطات الملكية ، ج ٢/١١٧ .

٥٨ — المصدر السابق ، ج ٤/٤٧٢ — ٤٧٣ .

٥٩ — المصدر السابق ، ج ٤/٤١٥ — ٤١٦ .

٦٠ — انظر : المصدر السابق ، ج ٢/٣٨٦ — ٣٨٧ .

٦١ — سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

٦٢ — «الفردة» أو «الفرضة» هو ما فرضته الإدارة المصرية على المذكور
من مختلف المذاهب البالغين من العمر من خمس عشرة سنة إلى ستين سنة ،
وكانت قيمتها ١٢٪ من دخل المكلفين ، ولهذا كان يختلف مقدارها بحسب
اختلاف درجات دخل المكلفين . وكان لها حدان أعلى وأدنى ، فلا تزيد
عن خمسمائة قرش على المكلف الثرى ولا تنقص عن خمسة عشر قرشاً على
المكلف الفقير . وقد كانت الفردة من أهم مصادر الدخل لخزينة محمد على
فى سورية ، وكان يقوم بتقديرها وتوزيعها على طبقات المكلفين ديوان
المشورة ، لكن الشكوى كانت كثيرة من المحاباة فى التوزيع . وتضاعفت
الشكوى إذ أخذ عدد المكلفين بالتناقص بسبب الوفيات والتجنيد والهجرة

لأن الرجال الباقين في البلدة أو المقاطعة كانت الحكومة تكلفهم دفع ما كان مفروضاً على المتوفين والغائبين . (انظر :

A. Laurent, *Relation Historique des Affaires de Syrie de 1840 à 1842*, Paris, 1846, T. I, p. 15.

أما إذا زاد عدد المكلفين في بلدة ما فكانت تزداد الضريبة بنسبة زيادة العدد . وكان يعفى من دفع الفردة رجال الدين والموظفون المدنيون والعسكريون ؛ كما أن الجنود لم يكونوا مطالبين بدفع الفردة في أثناء تجنيدهم ، غير أن أهلهم أو مواطنهم كانوا يكلفون بدفعها عنهم .

٦٣ - تقرير من أنطون كتافاكو ، قنصل النمسا في عكا ، إلى قنصل النمسا في الاسكندرية بتاريخ ١٤ ديسمبر عام ١٨٣٣ . انظر : المجلة البطريركية ، ابريل (نيسان) ١٩٣٠ ، ص ٢٥٤ .

٦٤ - نوفل نوفل ، كشف اللثام ، مخطوط بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ص ٤٨ نقلاً عن : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٦٥ - من كتافاكو ، قنصل النمسا في صيدا ، إلى قنصل النمسا في حلب في ٧ يوليو عام ١٨٣٤ : المجلة البطريركية : ابريل (نيسان) ١٩٣٠ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٦٦ - المصدر السابق ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

٦٧ - تقرير القنصل كتافاكو في الأول من أكتوبر عام ١٨٣٥ : المصدر السابق ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

٦٨ - تقرير القنصل كتافاكو في ١٢ أكتوبر عام ١٩٣٥ : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

٦٩ - عن معركة اللجاء انظر : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ص ١٩٤ - ٢٢٠ .

P. Dib. *Histoire de l'Eglise Maronite*, Beyrouth, 1962, T. II, - ٧٠.
pp. 261-264.

- ٧١ - ميخائيل مشاقة . مشهد العيان بخوادث سوريا ولبنان ، مخطوط
بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ص ١٢٦ .
- ٧٢ - M. Jouplain, *La Question du Liban*, Paris, 1908, p. 197.
- ٧٣ - راجع : جوزف حجار ، أوروبا ومصير الشرق العربي ،
ص ٦٨ - ٧٤ .
- ٧٤ - M. Jouplain, *op. cit.*, p. 201.
- ٧٥ - يوسف مزهر . تاريخ لبنان العام ، ج ١/٤٩٥ .
- ٧٦ - المرجع السابق . ج ١/٤٩٦ .
- ٧٧ - بولس مسعود . جلاء المصريين عن لبنان وسوريا ، المحلة
البتريكية . فبراير (شباط) ١٩٣٠ . ص ٧٦ - ٧٧ .
- ٧٨ - المرجع السابق . ص ٧٨ .
- ٧٩ - المرجع السابق . ص ٧٩ .
- ٨٠ - P. Dib., *op. cit.*, p. 270.
- ٨١ - P. Dib., *op. Cit.*, p. 268.
- ٨٢ - ابراهيم أبو سمرا غانم . أبو سمرا غانم ، بيروت ، ١٩٥٨ ،
ص ٤٨ .
- ٨٣ - Adel Ismail, *Histoire du Liban du XVIIIe. à nos jours*,
Beyrouth, 1958, T. IV, pp. 78—88.
- ٨٤ - A. Ismail, *Op. Cit.*, pp. 73—78.
- ٨٥ - يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ١/٥٠٣ - ٥٠٤ .
- ٨٦ - F. Guizot, *Memoires pour servir à l'histoire de mon temps*,
Paris, 1861—1864, p. 235.
- ٨٧ - Sabry, *op. cit.*, p. 501.
- ٨٨ - نقلا عن : زين نور الدين زين ، الصراع الدولي في الشرق
الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ،
حاشية رقم ٧ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

- ٩٠ - فرقاطة .
- ٩١ - على يد .
- ٩٢ - أليشى أو إلجى بمعنى سفير .
- ٩٣ - يمنع أى يحول دون وصوله .
- ٩٤ - يقصد الدول الكبرى .
- ٩٥ - انظر : أوراق لبنانية : ج ١ ، ١٩٥٥ ، ص ٣٧ - ٣٩ .
- ٩٦ - طنوس الشدياق : أخبار الأعيان . نشر فؤاد أفرايم البستاني ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٤٦٨ .
- ٩٧ - Sabry, *op. cit.*, p. 519.
- ٩٨ - R. Cattau, *Le règne de Mohamed Ali d'après les archives russes en Egypte*, Vol. II, la mission du Colonel Duhamel, 1834— 1837, Société royale de géographie d'Egypte, publication spéciales, Pt. 2, Rome, 1935, pp. 496—498.
- ٩٩ - يوسف مزهر ، المرجع السابق . ج ١ / ٥١٥ .
- ١٠٠ - محمد كرد على ، خطط الشام : ج ٣ / ٦٦ .